لكلٍ جهاد، وأنت جهادي

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب: لكل جهاد، وأنت جهادي**
- **المؤلف: آية أكرم الشولي**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 15749 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-30-0**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 9 شارع محلات السلام من عمر المختار أمام مستشفى الزيتون التخصصي – الأميرية - القاهرة

  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

لكلِ جهاد
وأنت جهادي

رواية

آية أكرم الشولي

2019

الإهداء

إهداء إلى كل طفل سوري

إلى حلب والشام ودرعا وكل مناطق سوريا الجميلة.

إلى كل سوري كانت جريمته محاولة البقاء.

تلك السطور التي سأكتبها لكم لن تكون مجرد سطور عادية،
هي سطور تحمل في طياتها المعنى الحقيقي للموت والظلام،
سطور كتبت بدماء الأبرياء الطاهرة،
المشكلة ليست بموت من تحب، المشكلة هي أن تبقى وحدك على قيد الحياة. تصارع بمفردك. . تبكي وحدك، كما تحزن وحدك.
في لحظة معتمة وباردة يخونك كل شيء إلا الموت. يصر على أن يبقى صديقك الوفي حتى النهاية.
ربما لا تكون هذه حكايتي لكنها حكاية كل طفل وكل امرأة وكل رجل حملوا الجنسية السورية. .
هي حكاية وطن أرويها لكم. وطن أصبح مسماه مقبرة الشهداء.
حكاية شعب يهربون من الموت إلى موت أكثر شناعة.
هي قصة أكثر من ثلاثة ألاف وخمسمائة وثلاثة وسبعون سوري كانت جريمتهم محاولة البقاء

أربع وعشرون ساعة من الظلام

الخامس عشر من شهر مارس،

كانت ليلة تختلف كثيرًا عن باقي الليالي. .

الجميع هنا يهرب بعيدا عن الموت المحتم. فحلب اليوم أصبحت الهدف الأول للعدو وأكبر مكب للجثث. .

ذلك اليوم لم يكن باستطاعة أحد أن يرى النهار. فلا مجال للشمس أن ترى من بين الدخان المتصاعد الذي سببته النيران. نحن اليوم نموت خوفا ثم قصفا ثم حرقا وجميعها في ذات اللحظة.

لكن مع كل ذلك إلا أن والدتي كانت متأكدة بأن الموت لن يطرق بابنا قبل أن تضع مولودها الأول (أنا). فجنينها الذي أوشك على النزول هو بصيص الأمل المتبقي لعائلة لم يعد لديها أي تفاؤل بغد مشرق ومزهر.

أطالت التأمل بوالدي الذي كان يحاول إخفاء دموعه عنها قبل أن تبدأ حوارها معه (سنعيش يا محمد وسأولد وسنفرح سويا بمولودنا الأول وسيداعبه جده وستروي له عن بطولاتك مع توأمك أحمد. ثق بذلك)

رغم حب والدي الشديد لحلب وشوارعها التي لم يعد فيها سوى الدمار والجثث إلا أنه كان موقنا بالموت. الموت الذي يحيط بنا من كل

جانب. لذلك لم يكن لديه خيار سوى التخلي عن وطنيته الزائدة والخروج بحثا عن حياة بلا دمار أو خوف له ولزوجته وطفله. أكمل حواره مع زوجته التي كانت تحاول أن تزرع بداخله الأمل. . (يجب علينا الخروج من هنا يا سوسن. يجب أن تلدي طفلنا بعيدا عن الحرب والدمار) نطق بجملته وهو موقن بأنه لا مكان سيحتوينا سوى وطننا الذي أصبح الآن بقايا وطن خالٍ من البشر. لكنه لم يرد أن يسمع صوت الموت وهو ينادي باسمي في أول يوم لي في هذه الحياة.

صرخت والدتي في وجه والدي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يعلو فيه صوتها (نخرج؟ ووطنك لمن تتركه؟ وأين هي دروس حب الوطن التي كنت تلقيها على مسامع تلاميذك؟ لمن سنترك سوريا؟ محمد نحن النساء نلد لنسخر أولادنا للدفاع عن وطنهم وليس للهرب من الوطن أتفهم؟).

نعم والدتي تعلمت من زوجها ومن والدها (الشخص الوحيد الذي أبقته الحرب لوالدتي) كيف تخلص لوطنها. كيف تذهب لجاراتها بهدف زرع حب الوطن في نفوسهم كي لا تفكر إحداهن بالخروج بحثا عن ما يسمى " بالحياة " بعيدا عن حدود سوريا.

بعد صمت دام لساعات بين والداي قررت الحرب أن تلجأ هي إلى إقناع والدتي بالخروج من حلب. .

صوت القصف بدأ يقترب أكثر فأكثر من مسامع والداي إلى الحد الذي ظن فيه والدي أنه حان دورهم ليرتقوا لمنزلة الشهداء. لملم والدتي في حجره محاولة منه لتهدئة خوفها الذي كان يتمحور حول جنينها. ظلت تسبح الله وتردد،

(أرجوك يارب لا أريد الموت قبل أن أرى طفلي الأول الذي انتظرت قدومه سنينا طويلة)

لم تستطع النوم تلك الليلة خوفا من أن يبيدها صاروخ استهدف منزلهم أو الغازات السامة التي بدأت تتغلغل في أرجاء المنطقة.

كان يوما أشبه بالموت. الموت الذي يحيط بك من كل الزوايا لكنه يسلب منك عافيتك وراحتك ثم يولي دون أن يأخذ روحك ليبقى الخوف يلازمك الخوف من كل شيء سوى الموت .

حلب اليوم يعلو فيها صوت واحد. الصوت الذي نحارب به الطائرات والمسلحين. صوت مزج به أصوات النساء والرجال والأطفال والمسنين، الجميع الجميع دون استثناء. الجميع يردد معا وبصوت واحد. .

(يا الله، يا الله، يا الله)

أصوات النحيب والمناجاة تصل إلى عنان السماوات. الجميع يتوب اليوم من ذنوب مضت ويستغفر الله كثيرًا. جميعهم يتطهرون اليوم ويغتسلون من الذنوب فتسبق توبتهم الموت.

الجميع تائب،

أمي تكسر شرائط الأغاني التي كانت تتكدس في خزانتها.

وأبي يقلع اليوم عن التدخين (كان ذلك قرار صعب بالنسبة له)،جارنا توقف عن ضرب زوجته، وفلان لم يعد يسرق، وآخر توقف عن الظلم.

لكن في الجانب الآخر وهو الجانب المظلم كان جميع من فيه مذنب،

أقصد أولئك الذين استغلوا الحرب والموت. هم الذين يدعون الله ليلا ونهارا بأن تستمر نيران الحرب بالاشتعال أكثر فأكثر. أولئك الذين أغنتهم الحرب فأصبحت عظامهم من ذهب، يسبحون بمالنا. وبطونهم امتلأت بالحرام.

اليوم يموت المظلوم ويحيا الظالم القوي فهنيئا لكم الدنيا وهنيئا لنا دار الخلد.

***

بدأت خيوط الشمس الساحرة ترتسم على سماء حلب معلنة عن بداية يوم هادئ لا يوجد به حتى اللحظة أي صوت مرعب. حلب هي أكثر مكان يحتاج للنور بعد ظلام الأمس، فالجميع قد ولدوا اليوم من جديد.

أسرعت والدتي لإيقاظ والدي بعد أن لملمت حاجياتها هي وزوجها للذهاب لمنزل جدي قبل أن تعود طائرات الرعب لتحلق فوق سماء حلب.

أصر والدي على قرار الأمس وأن الهرب من منزل إلى آخر لن يجدي فما تبقى من بيوت حلب إن لم يكن دورها في القصف اليوم فحتما سيكون غدا.

بعد جدًال طويل بين والداي استطاعت والدتي أن تقنع زوجها بالذهاب معها الى منزل والدها للمكوث هناك بينما يهدأ الحال في أحياء حلب المدمرة.

جدي رجل كبير يبلغ من العمر ثمانين سنة، بترت قدمه اليمنى عندما قصف منزل ابنته الكبرى نسرين نتج عن ذلك القصف بتر قدم جدي اليمنى وست ضحايا (جدتي – خالتي وزوجها وأطفالهم الثلاثة). ومن تلك اللحظة وجدي متمسك بالمكوث في حلب إلى أن يحين دوره في

الموت ليدفن بجانبهم، لذلك كان من الصعب على والدي أن يقنعه في اللجوء إلى أحد الدول المجاورة ريثما يعود الأمان إلى سوريا.

(تريد أن نخرج من حلب يا محمد؟ لطالما كنت أنا وأنت مدرسة لحب الوطن نعلم الناس كيف يموتون بكرامة من غير ذل. أنسيت لقد تعلمت ابنتي منك الإخلاص للوطن في الشدة والآن تذهب للذل بقدميك؟ أترضى أن يصبح اسمك لاجئ؟)

ساد الصمت بعد توقف جدي عن الكلام للحظات قليلة ليعود صوت طائرات الرعب تحلق من جديد لتخطف المزيد من الأرواح. صراخ الهاربين من الموت كان أعلى من صوت القذائف والرصاص. نداء النجدة من أفواه الهاربين كان يقتلنا قبل أن تقتلنا المدفعيات والطائرات، والدي كان يوجه نظره بين الحين والآخر لوالدتي. يرمقها بنظرات الغضب واللوم علها تلين فتوافق بالهرب هي وجنينها لبلد لا يرون فيه الدمار. مكان تظهر فيه الشمس كل صباح.

شمس حلب بدأت تغيب لتحرم أهالي المنطقه من نورها. في ذلك اليوم لم يكن الرعب مقتصر فقط على أصوات القصف والرصاص بل حوصرت حلب لمنع دخول أو خروج أي شخص منها وإليها حتى رغيف الخبز منع دخوله لينقذ البطون الجائعة خلف ذلك الحصار.

فالآن أهالي حلب قد خيروا بين الموت جوعا أو الموت إثر رصاصة أو شظية، فلا خيار آخر ينقذهم من الموت.

حاول جدي بدوره أن يخفف من الرعب الذي يسكن قلب والداي بقوله : (لن نموت جوعا فالمنزل مليء بالطعام. الثلاجات امتلأت بالمئونة لقد كانت والدتك يا سوسن تهتم لوجود الطعام الكثير في المنزل خوفا من أن يأتي اليوم الذي لا نستطيع فيه الخروج منه. سنقتصد بطعامنا كي لا نموت جوعا الى حين فك الحصار) أكمل والدي الحديث فور إنتهاء جدي (ما الذي كان سيحدث لو خرجنا قبل الحصار؟ ما الذي تنتظرونه؟)

تنهدت والدتي إلى الحد الذي ظن به والدي أن أنفاسها قد شقت صدر جنينها لتكمل الحديث (ننتظر الموت بكرامة. إن كنت تخاف الموت فآخرج إلى حيث شئت وحدك).

أهذا ما تصنعه الحرب؟

أن ينتظر كل شخص دوره في الموت؟

أن تموت الأحلام والأمنيات قبل موتنا؟

لأول مره كانت ترى فيها والدتي كم هي كبيرة حلب فما زال العدو يبيد ساكنيها منذ أشهر ولم ينتهوا بعد.

كان دورها هو الطبخ والتوزيع على أهالي حلب خفية كي لا يموتوا جوعا. يبدو أنها كانت تفضل أن يموت أهالي حلب قصفا على أن يموتوا جوعا أو ربما لأنها لم تكن قادرة على أن تحميهم من تلك الطائرات، لذلك قررت أن تحميهم من جوع الحصار.

بلغت شهرها السابع. بطنها بدأ ينتفخ أكثر والطعام بدأ يقل شيئًا فشيئًا. لم يعد هنالك ما يكفي لها ولمن تبقى من سكان حلب، ذلك الأمر هو من كسرها وأعاد الحزن لعينيها، فلم تعد قادرة على أن تحمينا من الجوع (سنموت حتما) قالها والدي بانكسار. بقلب موقن بكيف ستكون النهاية.

بعد شهر كامل من الحصار نفذت المؤنة، لم يعد هنالك حتى فتات الخبز ليعين امرأة تحمل في أحشائها جنين أصبح معرضا للموت. كانت تأكل ورق شجرة التوت المزروعة في حديقة المنزل كي لا أموت (أي رحمة تلك التي زرعت في قلوب الأمهات؟)

كان وضعها يزداد سوءا فلم يكن هنالك ما تغذي به جنينها سوى بضع قطرات من الماء فالشجرة بدأت تتعرى من أوراقها. كان يتوجب عليها قتلي لتعيش، فقد أصبح وجودي في أحشائها ثقيلا جدًا يسلب منها عافيتها ببطء،

لم يكن باستطاعة والدي أن يرى الشخص الذي تبقى له من الحرب يموت أمامه، لذلك قرر التضحية بي لأجل أن تعيش والدتي :(يجب عليك إنزال الجنين يا سوسن). جملة والدي كانت سهام جارحه تنغرز في قلب والدتي الذي بدأ يضعف فليست سوسن من تستسلم لأقسى الظروف. تظل تحارب وتقاوم إلى آخر رمق في حياتها. .

ربما لأجل ذلك لم تقتلها الحرب لأنها ثابتة لم تهزها رائحة الموت ولم تضعفها أصوات القذائف لتهرب من مكان ولدت فيه،

ثلاث شهور من الحصار نتج عنه موت ستة أشخاص جوعا.

***

يوم الأربعاء. .

يوم يكتب في تاريخ كل حلبي كأجمل يوم من أيام الحرب. يوم ظهرت فيه الشمس علانية دون خوف،

يوم استطاع فيه الأطفال أن يبتعدوا بعد وقت طويل عن أحضان أمهاتهم للعب فوق الركام. .

يوم استطاع أهالي حلب أن يذوقوا حلاوة الطعام من جديد،

ففي ذلك اليوم فك الحصار لسبب نجهله وارتاحت فيه مسامعنا من أصوات القنابل والطائرات،

والدتي استغلت ذلك اليوم بالذهاب خفية عن زوجها ووالدها للاطمئنان على منزلها وشجرة الياسمين التي زرعتها بحب في فناء المنزل. لم تندهش عندما وجدت شجرة الياسمين التي تحولت لرماد أو المنزل الذي كان هدفا لأحد الصواريخ. لم تبكي ولم تصرخ كغيرها بل ظلت تردد بسرها (اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه) ظل ذلك الدعاء رفيقها في تلك الحرب ترددده مع كل قذيفة هاون، ومع كل رصاصة تخرج من أحد المسدسات وقبل نومها تستودع ما تبقى من حلب وأهلها،

لم أكن أعلم أن الحرب تولد العاطفة والحنان في قلوب الأبرياء. ظننتها تخلق الأرواح من جديد لتجعلهم أكثر قسوة كي يصطفوا معهم ضد الوطن.

عادت والدتي لمنزل والدها بخطوات ثقيلة بقلب يخبرها أن الغد قد يكون أقسى من اليوم. كان كل شيء يسير عكس ما تتمنى. كانت الحرب أقوى من ثباتها. . فلقد وافق والدها على انتهاز فرصة فك الحصار للهرب بعيدا عن الموت إلى مكان بعيدا عن صوت القنابل والرصاص. مكان يستطيعون فيه النوم بعمق لا يوقظهم الخوف. لسبب مجهول وافق جدي الرجل الذي كان صارما في قرار المكوث في أحضان الوطن،

لم يكن أمام والدتي خيار آخر فليس باستطاعتها الرفض أو المقاومة. كان يجب عليها الخروج لأجل والدها ولأجل زوجها الذي أبادت الحرب عائلته دفعة واحدة. .

كان يجب عليها أن تخرج كي تنقذ طفلها من مشهد الموت الذي يتكرر أمامهم كل يوم. تتحسس بطنها المنتفخ وهي تحادث جنينها بصوت منخفض (أين سأذهب بك يا صغيري؟ أين يجب أن أضعك؟ فلا مكان أجمل من حلب يا صغيري).

(ربما الشيء الوحيد الذي يفقده كل سوري هو الحياة. ينقصه أن يحيى من الموت) تلك هي مقولة جدي المتكررة على مسامع ابنته. .

بدأت تجهيزات الرحلة إلى مكان مجهول. مكان تأخذنا إليه أقدامنا فنستوطن حيث تقف. مكان لا نعلم هل سنستطيع التعايش فيه أم لا. مكان جديد لا نعلم إن كان بإمكاننا مخالطة أناسه أم ستهلكنا الوحدة.

جدي يلملم ذكريات ابنته وزوجته وأحفاده لتكون ونيسا له في رحلته المجهولة. خمار زوجته، ألعاب أحفاده، ثياب ابنته الملطخة بالدم، وساعة زوجها. ووالدي تكفل بمهمة التجهيز بدلا من والدتي التي لازلت تحاول الإقناع بالبقاء. .

(من لكم غير الوطن؟ الحرب لن تطول. . أعدكم فلنبقى هنا بجوار الياسمين والغار. . لمن تتركون سوريا بعد رحيلكم ؟)

جميع محاولات والدتي باءت بالفشل الجميع يصر على الهجرة بعيدا عن دفئ الوطن والحرب الموجعة. كان خيار والدتي الوحيد هو الاستسلام للقدر وتوديع الياسمين وركام منزلها والقبر الذي يجمع جثث من أحبت، ودعت أصوات القنابل والرصاص. قبلت التراب الذي بلله الدم، حضنت جاراتها وهي تذرف دموع أسف وندم. . واستودعت ما تبقى من أهالي سوريا.

الظروف كانت أقسى من إصرارها وأحلامها التي ماتت مع أول منظر بشع سببته الحرب،
كان أقسى من ألمها بغد مشرق. غد ليس فيه سوى صوت العصافير والزغاريد. غدا لا يحمل في طياته سوى الفرح والحياة.

وفي النهاية كتب علينا القدر أن نكون ممن تدرج أسماؤهم تحت قائمة النازحين
الحلم الوحيد الذي كانت والدتي تخافه.

***

نازحو ريف إدلب

لم يكن النزوح إلى ريف إدلب أجمل من النزوح إلى مكان خارج حدود سوريا. ولا أبشع من الحرب التي كانت سبب نزوحنا. .

وضعتنا أقدامنا في "أطمة". مخيم بريف إدلب قريب من الحدود التركية عند معبر باب الهوى. .

كان يتوجب على والداي وجدي أن يسكنوا داخل أحد الخيم الممتلئة بالعائلات والأطفال. فالجميع هناك يتشاركون كل شيء، الطعام والخيمة الصغيرة حتى المرض يتناقل بينهم بشكل خيالي.

العيش هناك كالعيش بجانب قبرك المفتوح موقنا بموتك لكن لا تعرف الموعد لذلك تقضي ليلك القصير ونهارك الطويل بجانبه. .

والدي كان يجب عليه أن يعمل ليجمع المال الذي يستطيع من خلاله السفر إلى عمي أحمد الذي يسكن في أحضان كندا (آخر شخص بقي لوالدي من عائلته)

"توأم والدي خرج من سوريا قبل الحرب بأعوام، كان يتوجب عليه الخروج بعد أن أصبح مطلوبا للخدمة العسكرية. خرج إلى كندا ليكمل هناك المرحلة الجامعية وها هو اليوم يعمل معلما كأبي لا يكاد يكفيه

راتبه الذي يتوزع بين إيجار منزل ومواصلات وضرائب ومنها ما يتحول لوالدي ليعيش "

عمل والدي ببيع المناديل والحلويات وما شابهها على النازحين، وإن استطاع نزل إلى المدينة فباع ما استطاع ثم عاد.

***

أحد صباحات يوم السبت من شهر تموز :

إنه اليوم المنتظر. اليوم الذي سيأتي طفل جديد كي يسجل في قائمة النازحين.

لم أكن أنا الوحيد الذي يولد هنا بل كان هنالك الألاف من الأطفال الذين تلدهم أمهاتهم في العراء بمساعدة أحد النساء. لكن ألم الأم وهي تلد كان أشبه بالموت البطيء.

كانت فرحة والداي بقدومي فرحة لا يشبهها أي شيء رغم أن الأطفال في هذه الظروف تعتبر عبئا كبيرا على والديهم،

(ماذا سنسميه؟)

من هنا بدأت رحلة البحث عن اسم لي تولد الخلاف بين والداي وجدي. حيث اختار والدي اسم (عمر) ليكون اسم أول مولود له. لكن جدي لا يزال متعلق بالأسماء القديمة التي كان لها بريقا في

الستينات والسبعينات حيث عارض والدي بقوله :(لنسميه ثائر). أوقفت والدتي خلاف زوجها وأبيها بطريقتها المقنعة (أنا من حملته في أحشائها وتلاشت صحتها لأجله لذلك سيكون حق تسميته لي)

جدي ووالدي بصوت واحد : (وماذا ستسميه؟)

(جهاد) هو الاسم الذي قررت والدتي أن تطلقه على مولودها الأول ورفضت إخبار أي شخص يسألها عن سبب اختيارها لهذا الاسم قبل أن يسألها جهاد حين يكبر.

في تلك الليلة يبدو أن الطائرات علمت بقدوم مولود جديد لسوريا وأبت إلا أن يكون صوت الرعب هو أول ما يسمعه ذلك المولود (أنا).

.

آلام الولادة لازلت تلاحق والدتي؛ لذلك لم يكن بوسعهم الهرب بي إلى خارج حدود سوريا. قطعة قماش وضعها جدي داخل أذناي الصغيرتين كانت الحل الأنسب لنوم لا يوقظني فيه صوت الطائرات والموت،

مع صباح اليوم التالي كانت فرص النجاة من الموت تقل مع استخدامهم للكيماوي ضدنا،

لم أكن أفهم ما ذنب الأبرياء ليقعوا ضحية حرب لا علاقة لهم بها؟

ما ذنبنا ليقف الجميع ضدنا؟

ما الذي فعلناه لنستحق الموت قبل أن نرى الحياة؟

ولماذا الأطفال هم الضحية الكبرى للموت؟

لم يكن ريف إدلب وخيمه المتهالكة مكانا مناسب للنزوح إليه هربا من الموت. كان الكيماوي يتغلغل في كل الزوايا والمنافذ حتى دخل إلى صدري فجعل عملية التنفس تتلاشى،

طفل صغير لم يتعدَ عمره البضعة أيام، توضع على جسده أجهزة أكبر من حجمه لتحاول أن ترده إلى حياة بائسة أو بالأحرى تحاول أن ترده إلى الحياة ليذوق طعم الموت من جديد. كان ينقص تلك المدارس التي حولت إلى مستشفيات صغيرة الكثير من الأدوية التي ربما وجودها كان سينقذ آلاف الأرواح. كانت تعج بصرخات الثكالى والأرامل. دموعهم كانت كفيلة بأن تسقي جميع العطشى،

دعوات والدتي لم تكن تفارقني للحظة واحدة. كانت تريد مني أن أصبح رجلًا يحمل بندقيته ليدافع عن وطن ينزف. وهل يا ترى ستستطيع التخلي عن طفلها الأول والذي ربما يكون الأخير في ذلك اليوم؟. تريد مني رجلًا يعتدل بين اللين والقسوة فلا يغلب أحدهما على الآخر،

لن تجد قلبا يحبك دون ملل كقلب امرأة عشقتك منذ أن كنت نطفة.

الحادي عشر من أكتوبر:

حليب نساء النازحين إلى ريف إدلب بدأ يقل فما عاد حليبهن يكفي لإشباع أطفالهم. تكفلت والدتي بإرضاع ما استطاعت من الأطفال بعد إذن من والدي. كانت تحاول بكل جهدها أن لا يموت أحد أمامها. .

ريف إدلب كانت تفتقر إلى الشباب والرجال، فأغلبية النازحين هم من الأطفال الميتمة والنساء المرملة والشيوخ. المخيم هو محطة انتظار، ننتظر فيه عودة الرجال وإنتهاء الحرب للعودة إلى منازلنا المهدمة لكن ربما انتظارنا هنا قد يتحول إلى مكان للإستوطان فالحرب ربما لا تنتهي قبل موتنا .

الأطفال هنا في ريف إدلب كانوا عوضا عن الرجال يؤمنون الغذاء لمن يصغرهم. يشعلون الحطب في موسم الشتاء. يسيرون مسافات طويلة بحثا عن الماء. يحاولون بجهدهم الصغير تخفيف الحمل عن أمهاتهم. .

أولئك الأطفال لم تلد معهم الطفولة. ففي وطني ما عادت النساء تلد أطفالا وإنما تلد رجالا يحاربون مع أول خطوة يخطونها. يأتون للحياة لأجل تسخير أنفسهم للموت.

بدأ الجدَال من جديد حول اكمال النزوح من والدي بقوله : (إن لم نخرج من سوريا فسأسخر نفسي للحرب فلقد خيرتك فاختاري بين الخروج معا إلى خارج حدود سوريا أو وجودي في قبر بجانب عائلتي)؟

محمد الرجل الذي بدأت تصنع منه الحرب شخصا قاسيا لا يتحمل النقاش يفرض أرائه بقسوة دون سماع الأطراف الأخرى. ومتى كانت الحرب تعلمنا القسوة يا أبي؟ ليت الحرب تنتهي قبل خروجنا من هنا .

والدتي تكرر ذات الجملة دون ملل (وسوريا لمن نتركها؟) جدي (نتركها لمن هو أقوى منا يا ابنتي) يكمل والدي (سنخرج من الحدود السورية مع أول فرصة تتاح لنا) وساد الصمت.

الخامس من شهر أبريل :

الفرصة المنتظرة لم تأتي بعد والانتظار الممل بدأ يولد الهزيمة أو ربما الاستسلام للواقع ومحاولة للتعايش معه. .

خطواتي الأولى كنت أخطوها فوق الأرض التي بللتها دماء الأبرياء. وأول ما نطقت به كان كلمة (تفجير) والتي سبقت نطقي لبابا وماما. لم أدرك معناها فهي مجرد كلمة تتردد على مسامعي أكثر من أي كلمة أخرى،

الحرب تعلمنا رغما عنا. فمن علمته الحرب لن يحتاج يوما إلى الذهاب لما يسمى بالمدرسة لأجل التعلم. من تعلمه الحرب يظل أذكى وأقوى ممن تعلمه المدارس والكتب وصفحات على الإنترنت. فيصبح الطفل غنيا عن كل شيء وأولهم حضن أمه.

حربنا قاسية الى الحد الذي نقف أمام الموت بصمود نتجاوزه قبل أن يتجاوزنا.

عاد أبي من رحلة بحثه عن رغيف خبز يسكت به بطوننا الفارغة وعلامات البشرى والفرح ترى وبشكل واضح في وجهه. بدأ حديثه بابتسامة عريضه (سنتمكن قريبا من تجاوز هذه الحرب) جدي (كيف؟) يكمل والدي بذات الابتسامة التي بدأ بها (في الوقت الذي كنت أقف خلف مئات البشر بانتظار أن يحين دوري لأستلم رغيف الخبز فإذ بي أسمع من بين حديث المنتظرين أمثالي أن في يوم السبت ستهدأ الحرب قليلا وستفتح بعض المعابر)

لم يكن في وسع والدتي الاعتراض خوفا من زوجها فهي تحبه إلى حد الجنون. قصة حب جميلة لازالت ترافقهم. لم يكن لديها خيار سوى رفع يديها والدعاء بشكل مستمر بأن تهدأ الحرب قبل خروجهم. تقضي أكثر

أوقاتها بالدعاء والصلاة والتسبيح فهم سلاح من لا سلاح له. دعواتها طرقت أبواب السماوات فأذن لها الرب بالإجابة.

خوفها من الخروج كان أكبر من الذي يحدث هنا. الحرب في نظر والدتي كانت أحن من الغربة عليها فلازالت ترى الأمان رغم الخوف. والجمال من بين الدمار.

الوطن يبقى وطن وإن كان مجرد ركام.

ما هو حال المغتربين يا ترى؟ كيف يستطيعون العيش من غير ياسمين وأقارب؟

هل يستطيعون النوم ليلا؟ وهل شمس الغربة تشبه شمس الوطن؟ هل سيجعلني القدر أعش تلك التجربة المخيفة؟

كل تلك الأسئلة كانت تدور في رأس والدتي. أسئلة لم تلحق بجواب. وبكاء لم يهز العواطف ورصاصة لم ترحم ضعف والدتي،

رصاصة من بين رصاصات الموت التي كانت تطلق بشكل عشوائي كان مصيرها أن تستقر في قدم أكثر شخص يجب أن يعيش (والدتي).

ربما لن أستطيع وصف المشهد بشكل دقيق فمشهد الموت لا يكتب. دماء تسيل من قدمها، صرخات تشق حنجرتها، دموع تحرق خديها، وتكبيرات تحاول أن تخرج من شفتيها، تستغيث لكن أين هم المغيثون؟

كيف لرجال الإسعاف أن يشقوا طريقهم وسط تلك الاشتباكات أن يصلوا إلى قدم والدتي؟ أقتل الأبرياء أمر يسير إلى هذا الحد؟ أناس لا علاقة لهم بنار اشتعلت فوق أرضهم يكونون أول من تبتلعهم؟ أليس هناك عالم جديد يعيش عليه الأبرياء فنترك هذا العالم لهم؟

قطعة قماش من قميص والدي لفت بإحكام على قدمها لتمنحها بضع دقائق أخرى من الحياة. الحياة التي كانت تودعها قبل قليل. حياة بائسة تلك التي نعيشها بعد موت من كان يمدنا بالأمل. الشعور الذي لا تكاد تستطيع وصفه هو شعور الفقد. . فقدك لمن كنت ترى الحياة جميلة من عينيه فقط. نحن نموت بموت من نحب (فلا أريد أن تموتي يا أمي) شق صوت زمور الإسعاف طريقة إلى مسامعنا. جاء ليزرع الأمل في قلوب جرداء يابسة. وكان ياسمينة زرعت في أرض يابسة لم يزورها المطر منذ سنين طوال.

حملوا والدتي الفاقدة لوعيها مع بقية المصابين إلى مستشفى تفتقر لأبسط الأدوية. (ليس لديهم قطعة شاش بيضاء)، مستشفيات كهذه لماذا تستهدفها الطائرات؟

كان آخراج الرصاصة من قدم والدتي أمر صعب. أصعب مما كان والدي وجدي يظنان الصراخ كان يشق صدر والدتي، العرق يبلل

جسدها، تصرخ ثم تهدأ ليعلو بعد ذلك صوت أقوى من ذي قبل. (لن تموتي وستنتهي الحرب ونعود للمنزل وستخبري جهاد عن قصة هذه الرصاصة ستخبريه كم كان الوجع مرير) همس بها جدي في أذن ابنته محاولة منه لتهدئتها. أوقفوا النزيف وأخاطوا الجرح فوق الرصاصة من دون البنج. . فالرصاصة أبت الخروج من ساقها وفضلت الاستقرار داخل جسدها. دعواتهم الخارجة من وسط الموت كانت تصعد للسماء فلا يعود إليهم منها غير صداها. فالرب يختزل دعواتنا ليفاجئنا بما هو أجمل مما دعوناه به .

كان يمكن القول أن حالة والدتي مقارنة ببقية الضحايا الموزعة في زوايا المستشفى هي أبسط حالة يمكن علاجها من بين كل الحالات. .

أغلب المصابين الذين يستطيعون الوصول إلى المستشفى محاولين التشبث بالحياة، ينتهون قبل أن تصل يد الطبيب إليهم. كيف لا ومئات المصابين ينتظرون أن يعالجهم طبيب واحد؟

عادت نبضات قلبها إلى شكلها الطبيعي وأعادت معها أرواحنا التي كانت معلقة بين السماء والأرض.

أمي أنت هي الحياة الجميلة فمن بعدك أين لي أن أجد الجمال؟

وضعوني في حجرها أبكي فوق جسدها المتعب أنتظر منها أن تفتح لي عيناها الذابلتين وتلملم أحزاني وتمسح دموعي بكفها التي لازالت بقع من الدماء عليها.

(في الغد ستصحو يا صغيري دعها تنام لترتاح) قالها والدي بنبرة حزن موجعة.

***

الثلاثون من أغسطس

كبرت وأصبحت أكثر فهمًا للحياة. كبرت لأبحث عن أجوبة لكل شيء يحيط بي. .

لم يكن يجب على أسئلتي التي لا تنتهي سوى جدي الذي لم يعد يرعبه شيء. .

(جدي لماذا نحن هنا؟). جدي (أين يجب أن نكون؟). أنا (في المنزل)، ترتسم على وجهه ابتسامة مزجت بالقهر (وهبناه للحرب). الحرب هي الكلمة التي ترددت على مسامعي كثيرًا وحفظتها دون أن أفهم معناها (ما هي الحرب؟). سالت على خديه دمعة وكأنه تذكر زوجته وابنته ليجيبني بعد صمت لم يدم سوى لثوان معدودة ، شيء مرعب يخطف كل لحظة جميلة). أنا((إذا ستخطف والدتي؟)

لم أكن أفارق حضنها خوفا من أن تغافلني الحرب وتسرق والدتي. وكلما رأيت الدموع تغرق عينيها سارعت لمسحها بكفاي الصغيرتين وأنا أقول (لا تخافي أنا الى جانبك لن أدع أحدا يخطفك).

أعلم أنني فهمت الحرب بالشكل الخاطئ. هي ليست شخصا كما ادعيت ولكن طفل مثلي يحاول جاهدا أن يتشبث بالطفولة المغصوبة. لا

نريد أن نكبر. لا نريد أن نصبح رجالا. لا نريد أن نحمل البندقيات ونصطف على الجبهات.

نريد أن نعيش كالأطفال. نلعب ونلهو نبكي لأجل قطعة حلوى، . نلاحق الطيور ونصطف في طوابير المدرسة ننشد بصوت واحد نشيد الوطن.

نريد أن نزرع مع أجدًادنا في حقول السلام ونحتفل في الأعياد.

(هل ستسامحنا حلب؟) جملة خرجت بصعوبة من حنجرة والدتي الضيقه لتتجه نحو مسامع والدي لتحيي مشاعرا قتلتها الظروف،

الجميع بدأ يحن لشوارع حلب التي حفظت بصمات أقدامنا. لمنزل جدي الذي يحتفظ برائحة الماضي الجميل. إلى منزلنا الذي هدم وأولنا هو والدي الرجل الذي بدأت تختلط لديه العواطف والقوة فلا يستطيع السيطرة على أحدها. . (لا أعلم)

قررت والدتي بمساعدة من جدي ونساء المخيم أن يسخروا أنفسهم لتعليم الأطفال الكتابة والقراءة. كنا نجتمع خمسة أيام من كل أسبوع في أحد الخيم لنغذي عقولنا بالعلم وما تبقى من الأسبوع (الجمعة والسبت) نجتمع في نهارهما حول جدي ليقص علينا بعض بطولاته

ونصائحه فيغذي بكلامه أرواحنا الصغيرة ويرسم الابتسامة على وجوه شاحبة.

والدي كان يقضي نهاره بانتظار الفرج. اليوم الذي تهدأ فيه الحرب ليهرب إلى تركيا. وفي الليل ينفرد بي ليحدثني عن جمال تركيا كي أتعلق بها فأقنع والدتي بالذهاب. .

-جهاد أتحب الشجر والنباتات؟

-تلك التي نزرعها لتزين هذه الأرض اليابسة؟

-نعم هي

-بالتأكيد أحبها. هل ستحضر لي بعضا منها؟

-لا بل سأصطحبك إلى حيث لا مكان للصحراء. مكان أشبه بالجنة.

-ما هي الجنة؟

- هو ذلك المكان الذي يذهب إليه الأبرياء.

- أمثالي؟

- تماما. ذلك المكان يسمى تركيا مليء بالأطفال والمدارس والألعاب.

- وهل بتركيا يوجد طائرات؟

- لا. لا تركيا مكان هادئ. لا مكان للطائرات فيها.

- ولماذا لا نذهب إليها إذا؟

– سنذهب ولكن عليك أولا إقناع والدتك.

بدأت أطالب والدتي في الصباح والمساء باصطحابي إلى تركيا. المكان الذي ظننته ينتمي إلى سوريا. تخيلته في عقلي الصغير أنها أحد مناطق سوريا الجميلة التي لا تبعد عنا الكثير. وألجأ إلى البكاء عند اللزوم لأحرك مشاعرها. ليس هذا فقط بل أذهب إلى بقية أطفال المخيم لأحدثهم عن جمال تركيا الذي وصفها لي والدي فيتمردون على عائلتهم . .

(يا ليتك يا والدي حدثتني عن وطني وجمالها الذي سيعود يوما ما بدلا من حديثك لي عن تركيا وجمالها،)

إقناع والدتي كان بالأمر السهل. لم أكن أنا من أقنعها بل الجهل الذي كانت تراه في عقول أطفال النازحين هو من أقنعها. لم ترد أن أكون مثلهم أجهل الكتابة والقراءة لذلك قررت اللجوء إلى تركيا كي ألتحق بالمدرسة كالأطفال.

كانت تريد من طفلها الوحيد أن يتعلم ويكبر ليعود إلى وطنه فيبنيها بعقله. كانت تبكي عندما تجد نفسها مجبورة على الخروج وترك وطنها يشتعل وحده. ترى نفسها مكبلة لا تستطيع الحراك. تنظر إلي بحرقه

وكأنها تقول لي (ليتك لم تأتي إلى حياتي وتجبرني على الخروج من وطني يا جهاد، ليتك لم تأتِ الأن)

هكذا هي الأم تتخلى عن صلابتها وتمسكها بكل ما تملك في لحظة خوف على أطفالها.

في نهاية اليوم أتت تجر قدميها وتحاول إيقاف دموعها التي لازالت تجري كنهر على خديها لا تعلم كيف ستخبر والدي أنها وافقت على الخروج إلى تركيا كي تبني مستقبلا جميلا لطفلها. .

تنظر إلى زوجها ووالدتها تفتح فمها محاولة منها للكلام لكن الكلام ثقيل جدًا فتجهش بالبكاء. الوجع كبير جدًا أكبر من أن يخرج من حنجرتها. . تصرخ بصوت مكسور قائلة: ليتك لم تأتِ يا جهاد، ليتني لم أنجبك في هذه الظروف

حضنتها بيداي الصغيرتين وأنا أبكي. حدثتها بصوت هادئ

-أتريدين مني أن أموت؟

- لا لا لا لا. لا يا صغيري فأنا أرى جمال الدنيا من خلال عينيك.

- إذا لماذا تريدين رحيلي؟

-لم أكن أقصد ذلك يا صغيري. أرجوك اعذرني.

الوجهة التالية لإكمال النزوح كانت إلى تركيا وبالتحديد إلى أزمير والتي سيتوجب علينا بعد ذلك ركوب قارب مطاطي (البلم) لنعبر من تركيا إلى ألمانيا،

معنى ذلك أننا سنرتقي من قائمة النازحين إلى قائمة اللاجئين،

***

لست تشبه وطني . .

كنا من بين الكومة الهائلة من البشر التي تتزاحم لأجل الخروج إلى حدود تركيا هربا من كل شيء. سفر من غير جواز أو تأشيرة سفر. من غير طائرة ولا حقائب. رحلة لا نعرف أين ستوصلنا وهل هنالك عودة من تلك الرحلة أم هي رحلة غربة طويلة الأمد؟

هل ستصبح سوريا مجرد ذكريات؟

ما الذي ينتظرنا غدا؟ أهي حياة جميلة في نهاية المطاف؟ أم رحلة عذاب أقسى وأشد من الذي عشناه؟

أرجوك يا سوريا اغفري لنا خروجنا من أرضك، .

أزمير هو المكان الذي يعج باللاجئين أمثالنا. أينما اتجهت ستجد المئات من السوريين الذين ينتظرون قاربهم المطاطي لينقلهم إلى مكان بعيد جدًا عن سوريا ورائحة الياسمين والغار، حدائق أزمير ومنتزهاته كانت ممتلئة بالأطفال الذين ظنوا أنها الجنة فهي كما وصفها لهم والديهم. ليس بها قنابل أو طائرات وهنالك الكثير من الحلوى والأطفال لكن جنتهم لم يكن بها منزل أو سرير يرمون أجسادهم المتعبة عليها .

كنت الطفل الوحيد الذي لم يعجبه المكان بسبب حزن والدته. تبكي طوال الليل وتقضي جل النهار في إقناع والدها وزوجها بالعودة.

رغم أنني لازلت طفلًا ولكن كنت أرى نفسي السبب وراء غربتنا هذه.

ما الذي كان سيحدث لو بقينا في ريف حلب؟. كنت سأتسابق أنا والصغار على جمع أكبر عدد من الرصاص التي خلفتها البندقيات. " الحرب لا تقتل فقط بل تهبنا ألعابا جديدة لم يلعب بها أطفال قبلنا ".

كنت مستمتعا بطفولتي هناك رغم كل شيء،

-أريد العودة يا أبي.

- لا عودة بعد الآن. وليسمعني الجميع سوريا لم تعد سوى ذكريات ولا أريد سماع كلمة (عودة) من جديد.

كان رده قاسيا علينا جميعا. ماذا يعني سوريا مجرد ذكريات؟

هل بلغنا نقطة اللارجوع؟

أليس هنالك خطة للعودة يوما ما الى موطننا يا أبي؟

ليتك لم تجبني وفضلت السكوت،

ليتك لم تجرح قلب أمي بكلامك ليتك لم تتحدث. .

أمي لم تتوقف دمعتها ذلك اليوم. لقد حطم والدي كل أحلامها وأمالها بجملته. لكنها لن تستسلم ستظل تصلح ما حطمه والدي بكلامه وتبني أحلامها من جديد، ستتمسك بالعودة إلى آخر يوم لها.

كل يوم يمر علينا في أزمير كان الموت أرحم منه. الرعب يزداد مع كل يوم يمر فغدا أو ربما الذي يليه قد يكون موعد رحلتنا مع العشرات من الهاربين على قارب مطاطي صغير. كل تلك المغامرات الخطيرة لأجل من؟ لأجلي؟ لأجل أن يبحثوا عن حياة هادئة لطفلهم؟ عن مكان يتعلم به من دون طائرات تحلق فوق مدرسته؟

الهرب من حلب وغربة الوطن والمغامرة في قارب الموت لأجل طفل فقط؟ ألم يكن موتي أرحم وأقل عناء من كل الذي يجري لنا؟

أُجُبرنا على النوم في أحد الحدائق العامة في أزمير. لم نكن نمتلك خيمة أو حتى قطعة من الحصير نرمي عليها ظهورنا المتعبة.

والدتي كانت تستمع إلى هموم اللاجئين الذي فقدوا أحد أبنائهم أو ربما أزواجهم في ذلك البحر الممتلئ بجثث السوريين لتعود آخر النهار لوالدي؛ كي تقنعه بعدم المخاطرة؛ فطفلهم مازال صغيرا لم يرَ شيئًا من جمال الحياة بعد.

-والدتي أين سننام اليوم؟

– في ذات المكان الذي نمت فيه ليلة الأمس.

– حضنك؟

– أليس مريحا؟

كنتُ حملا ثقيلا وفي ذات الوقت كنتُ أجمَلَ ما حصل لوالداي. لكن همي كان يطغى على جمال وجودي. نحن نكبر لنزد الهم على أكتاف والدينا فتغدوا أيامهم ثقيلة إلى الحد الذي يظنون أنفسهم أنهم غير قادرين على إكمال تربيتنا!

سارعتُ تلك الليلة للنوم بجانب جدي بحجة أنني كبير ويجب أن أفعل كما يفعل جدي. في الحقيقة كنت أهرب إلى جدي كي أتيح فرصة النوم لوالدتي بينما اغتاله من أعين جدي بأسئلتي التي لا تهدأ (جدي هل نحن فقراء؟). يجيبني جدي بذات الابتسامة التي ترتسم على وجهه في كل مرة أسأله بها:

- (لم يطرق الفقر بابنا يوما).
- (إذًا لماذا نحن هنا؟ ألا نمتلك منزلا في تركيا؟)
- (سنمتلك قصرا في ألمانيا قريبا يا جهاد)، (وهل ألمانيا تبعد كثيرًا عن سوريا)
- (لكننا لسنا في سوريا الآن يا صغيري).

- (أعلم، لكنني لا زلت قادرا على أن أشم رائحة الياسمين من هنا ولا أريد أن نذهب لمكان لا تصلني فيه رائحة الياسمين يا جدي).

نعم لا ترمقني بنظرات الاستغراب فلقد كبرت يا جدي. فأنا قد أصبحت رجلًا منذ أن دخلت في العام الخامس، قادرا على تمييز الوطن والغربة، أستطيع أن أفعل كل شيء يقوم به الرجال. لستُ طفلًا يا جدي.

ما فائدة أن أكون طفلًا وليس بمقدوري اللعب كبقية أطفال العالم؟

أو طلب الحلوى كل يوم من والدي؟

ما فائدة الطفولة إن لم يكن فيها براءة الصغار؟

لقد ولدت رجلًا يا جدي، لم أشعر للحظة واحده أنني أنتمي إلى الأطفال. ربما الشيء الوحيد الذي يجعلكم تظنون أنني طفل هو جسدي الصغير. لكن هنالك عقولا كبيرة داخل رؤوسنا،

أتمنى أن أعيش كطفلٍ ليومٍ واحدٍ فقط، وإن كان كثيرٌ على طفلٍ مثلي اليوم فلا بأس ببضع ساعات.

لا أريد أن أكبر أكثر يا الله،

بعد مضي شهرين على وجودنا في أزمير،

المئات من الهاربين كان مصيرهم الموت غرقا،

لماذا نهرب من الموت إن كنا نعلم أننا نسير إلى موت أكثر بشاعة؟

نحن شعب لم يخلق ليحب أو يتمتع بزينة الدنيا. الحرب خلقت لنا وخلقنا لها. خلقنا للمدفعيات والبنادق. وجدنا لنصطف على الجبهات رغما عنا وليس بخيارنا. نفتح أعيننا على حياة بائسة نتعلم منها فنون الموت. فنحن أموات نشتهي الحياة.

كنا كغيرنا من اللاجئين الذين ينتظرون اللاشيء. حتى إكمال رحلة اللجوء إلى ألمانيا لم نعد ننتظرها. نحن ننتظر المساء ليحل فإن حل انتظرنا الصباح. لم نعد نهتم بعد الساعات والأيام والشهور.

هل نحن السبب في كل الذي يجري؟

هل نحن السبب في الظلم الذي يتغلل في بلادنا؟

وهل باستطاعتنا أن نعيد الحياة إلى سوريا بعد أن قتلناها؟

أنت في الغربة أشبه بأن تكون كميت لم يجدوا له قبرا. أو ربما كأرجوحة في وسط صحراء قاحلة تشتكي من هجر الأطفال لها.

تمتلك وطنا؟ إذا أنت قادر على أن تمتلك الحياة.

كل يوم أحاول أن أسير فيه مع الأطفال والنساء الموزعين في شوارع أزمير الممتلئة بشاحنات الحلوى المتنقلة. وصوت زمور سيارة الأيسكريم. ورائحة الطعام التي تفوح من داخل المطاعم المكدسة إلى جوار بعضها. كل تلك الأشياء التي لم أتذوقها يوما ولم أتلذذ بها كانت تمنعني من السير في شوارع أزمير .

طفل مثلي يحرم من أبسط شي في هذه الحياة (قطعة حلوى). هل أستطيع إدراجها تحت مسمى الظلم؟ وهل سرقة قطعة حلوى تعتبر جريمة يحاسبني الله عليها؟.

الظلم هو أن تمتلك المال لكن تجبر على دفعه كله لأجل محاولة عيش فاشلة. .

أن تحاسب على ذنب اقترفه غيرك،

أن تجبر على قتل الأبرياء لتكسب فرصة حياة أكبر. .

الظلم لا موطن له. يسافر إلى كل القلوب ليغتال منها الحب والعدل.

ألا ليت الظلم بشرا لنستطيع إبادته برصاصة أو طعنة سكين.

في صباح أحد أيام الثلاثاء كانت الغربة تهنئني بمضي عام جديد على وجودي فيها. حفلت يوم ميلادي كانت مليئة بالدموع. دموع والدتي التي تكاد ملوحتها تقتل براعم الأمل بداخلنا. دموع أم ليست قادرة

على الاحتفال بطفلها كما تفعل جميع الأمهات. . (جهاد إنه يوم ميلادك السابع ولم أجد ما أهديه لك سوى وردة قطفتها من هذه الحديقة الذابلة).

-لا أطمع بهدية يوم ميلاد يا والدتي. وإنما أطمع بحضن وأغنية.

كان يجب علي أن أكون لوالدتي طفلًا وأخا وزوجا بدلا من زوجها الذي لم يعد يفكر سوى في الهجرة. متناسيا أن له زوجة وطفل يعيشون معه كل لحظة سوداء.

الضمائر لا تموت وإنما تتخدر لوقت قصير أو ربما لوقت طويل الأمد.

إنني أكبر ولم أعش بعد يوما واحد من سنين طفولتي كالأطفال. نحن نكبر ويكبر معنا الوجع بدلا من أن يكبر معنا الحلم.

العودة إلى حلب كان حلم والدتي. وجدي. وكل شخص فر منها. لكن الآن لم تعد حلما لأحد فما فائدة العودة إن كانت حلب قد ماتت؟

***

أحياء وأموات

فصل الشتاء بدأ يطرق الأبواب. البرد لم يكن يفرق بين فقير وغني، أو طفل وشاب، أو مريض ومتعافي. كان يزور أجسادنا جميعا ليجمد معه كل شيء. الأحلام، المشاعر، والأمنيات، وأطرافنا التي لم نعد نشعر بها. جلودنا بدأت تتحول للون الأزرق ،أسناننا تتراقص. تعزف سيمفونية الوجع.

دعوات اللاجئين موحدة. نرفع أيدينا نحو رب السماوات وندعو بأن تهجرنا الثلوج والأمطار هذا العام ولأول مرة كنا ندعوا الله أن يحرمنا من نعمته.

ليالي الشتاء كانت قاسية جدًا. لم نكن نجد فيها ما يقينا بردها. حتى شمس تركيا لم تمدنا ببعض دفئها. الجميع هنا يتردد على رأسه ذات السؤال (هل سنموت بردا؟). نترقب مجيء أي شخص ليهدينا وسادة أو لحاف أو بعض الملابس لنخبيء أجسادنا العارية تحت قماشها لكنها لم تكن سوى أضغاث أحلام فقط.

أن يموت أمام ناظريك شخص كان يحاول مصارعة الموت ليحصل على فرصة جديدة بالحياة كان أقسى من أن ترى شخصا تخطف روحه

قذيفة دون أن تجعله ينازع. الشتاء هو الحرب هنا فمن يحاول مقاومته سيلقى مصيره (الموت بردا)

كنت أراها أمامي (والدتي) وهي تصارع البرد لأجلي لم تبخل علي بإعطائي كل ما تستطيع إلى أن بقي على جسدها بيجامة خفيفة جدًا تسترها وقطعة قماش تستر شعرها. كانت تحاول أن تحارب البرد بهما. لم تكن تريد أن تموت لأجلي ولا تريدني أن أموت لأجلها. لماذا تقسو علينا الحياة؟ أليس هنالك أي مجال لأن يكون في هذا العالم بقعة صغيرة يعيش عليها الأبرياء؟

ربما حالنا الآن هو نعمة أو ربما نقمة. . لم نعد قادرين على التفريق. لجأت إلى جدي الذي كان يقاوم البرد ويحاول جاهدا أن يجيبني رغم صعوبة الكلام. أنا (جدي لماذا سميتموني جهاد؟). جدي (هذا السؤال الوحيد الذي لا يكمن جوابه عندي). (إذا عند من يكمن؟). (عند والدتك التي أبت أن تجيب على سبب تسميتك بجهاد إلى أن تسألها بنفسك). هرعت مسرعا إلى والدتي التي لازالت تقاوم لأجلي. المرأة التي بدأت أسنانها تتكسر نتيجة تراقصهم القوي. الحروف كانت ثقيلة على لسانها لكنها ظلت تحاول كي تجيبني، .

-ك، كننن. كننننت ممم، ممتأكدة أننه،

– دعينا نؤجل السؤال إلى أن تستطيع الإجابة عليه بشكل أريح يا والدتي.

– لاااا. لططط، لطاالما اننتظرت ه، ه هذا ال. . اليوم.

ظللت أنتظر الإجابة طويلا. كانت الكلمات تخرج من فمها متقطعة فأحاول تركيبها. أسمتني (جهاد) لأنها كانت تريد من طفلها أن يسخر نفسه حين يكبر لوطنه وشعبه. كان تريد مني أن أصبح شخصا يجاهد لأجل حلمه وذاته. فينتصر على العالم لأجل نفسه.

انتهت من كلامها ثم أغمضت عينيها لتنام بهدوء طويلا. ظننت بداية أن الجهد الذي بذلته لتجيبني قد أرهقها فنامت لتريح نفسها وجسدها.

في الصباح كنت أرى دموع جدي ووالدي لأول مرة كانوا يبكون لسبب أجهله. أحدق في دموعهم طويلا ثم ألتفت بشكل مفاجيء إلى والدتي فأراها تبتسم لي. وجهها كان يشع نورا لم ألحظه من قبل. كانت جميلة جدًا. علامات التعب التي كانت تحتل جمالها قد اختفت اليوم. كانت ترتدي فستان أبيض مزين بحبات من اللؤلؤ الذهبي. كنت على وشك أن أسالها عن مصدر ذلك الفستان لكن خشيت أن يكون صدقة من أحد العابرين فأخجلها بسؤالي. يحضنها بقوة أمام أعين الجميع

ويتمتم فوق رأسها كلام لا أحد يفهمه. دموعه كانت تغسل وجه أمي، وجدي يراقب المشهد بهدوء.

أمي أنتِ اليوم أكثر جمالا من أي يوم مضى.

الجميع تلك الليلة حاوطني بلطفه وحنانه منهم من يأتي بأطفاله ليلعب معي. وآخر من يخرج من حقيبته قطعة حلوى كان يختزنها لطفله فيمدها لي، الجميع بلى استثناء كان لطيف معي حتى والدي لم يدعني أغادر حجره. في حين كنت أحاول معرفة سبب ذلك كله.

في تلك الليلة تركت حضن والدتي وأسرعت إلى سماع الحديث الذي دار بين جدي ووالدي. يبدو أن جدي بدأ يحن للوطن ودفئه وقد مل من الانتظار هنا في العراء (محمد إن كنت تريد إكمال هجرتك إلى ألمانيا فافعل. . أما أنا فسأعود مع جهاد إلى سوريا). والدي (جننت يا عمي؟ لم يبقى الكثير على دورنا للهجرة). (اذهب وحدك وإن نجحت بالوصول فأتي بطفلك عن طريق لم الشمل). (وحتى يأت لم الشمل أين ستنتظرانني؟) ،((في منزلي بحلب)). (لا سنذهب جميعا).

كانا يتحدثان عني وحدي متناسيين أن والدتي بيننا. تصرفات والدي نحو والدتي لم تكن تفسر وكأنه ينوي أن يدعها هنا وحدها ليتمتع وحده بجمال ألمانيا ونسائها. .

-ووالدتي ماذا عنها؟

كانا يرمقاني بنظرة تملأها الدموع. نظرة حزن لم أفهم سببها. تطوع والدي ليرد علي قائلا :

-ستذهب معنا.

مع كل دقيقة تمر كان يزداد معها تمسكي بوالدتي ووجودها إلى جانبي. لم تكن تتحدث مع أحد غيري فإذا أتاها والدي أو جدي التزمت بالصمت إلى حين مغادرتهم

، لم أكن أفارقها للحظة. أقضي جل وقتي بين سماعي لقصص طفولتها وبين سماعها لمخططاتي في المستقبل. أجمل ساعات حياتنا هي تلك التي نعيشها في أحضان أمهاتنا حيث الأمان والدفء. حيث المسكن والحب.

الأم وطننا الأول، حبنا الأول، ضحكتنا الأولى. . الأم هي التي ليس لها مسمى واحد.

أحبك أمي. .

***

بعد مرور ثلاث سنوات من تواجدنا في أزمير، .

أحد ليالي الخميس التي صنفت من الليالي المرعبة حيث لا نوم ولا راحة فيها. أتانا الخبر الذي ظل والدي ينتظره دون ملل. هاهو دورنا قد حان لنركب القارب المطاطي ونسير نحو مستقبل مجهول قد ينقضي بغرق أحدنا أو جميعنا.

أضررنا للسير على أقدامنا مسافات طويلة في منتصف الليل. فهجرة غير شرعية كهجرتنا يجب أن تكون خفية بعيدا عن أعين الناس.

في طريقنا كنا نودع كل شيء وكأننا نعلم أننا سنموت بعد بضع ساعات. نحفر على الشجر أسمائنا ليراها من سيعبرون بعدنا. نطلب من الأرض أن لا تمحي بصمات أقدامنا. ودموعنا كانت تسقي زهور أزمير الملونه فتموت بملوحتها.

توقفنا بعد خمس ساعات من السير أمام بحر امتلأ بجثث الهاربين فأصبحوا طعاما للأسماك فلم يعد يعجبها طعم أعشاب البحر. حتى البحر يخوننا. نهرب إليه فيبتلعنا في لحظة غادرة.

كنا ما يقارب المائة شخصا ومن بيننا الأطفال والنساء. وعلى أحدنا أن يتعلم في غضون خمس دقائق كيف يقود المركب المطاطي ولا مجال

للتراجع فإما الإكمال أو الموت قتلا كي لا تفشي سر أولئك البشر الذين سلبوا منك كل ما تملك ثم سلموك إلى الموت.

قضينا ما يقارب الساعة والنصف في محاولة إقناعهم بأن يرسلوا معنا أحدا ذات خبرة في القيادة لكن بلا جدوى كنا نكلم أنفسنا أو بالأحرى كنا نحاول أن نتحدث مع أناس قلوبهم عمياء وصنعت من حديد. أناس لم تحرك مشاعرهم نحيب النساء الذي شق الصخور ولا ترجي الصغار الذين يطلبون فرصة للعيش في هذا العالم المرعب .

رجل يدعى (يزن) زوج لامرأة قتلت في الحرب وأبا لطفلين سيعيشون معه تلك المغامرة المميتة. تطوع أن يكون صاحب القلب القوي والذكاء الخارق ليتعلم القيادة في غضون خمس دقائق فقط.

لبسنا ستر النجاة التي علقنا فيها كل أمالنا ووثقنا بأنها ستكون المنجي لنا بعد الله وتزاحمنا في ذلك البلم. الأم تضم أطفالها بين أحضانها وتدعوا الله أن ينجيهم والرجال لازالوا يحاولون السيطرة على مشاعرهم والحفاظ على صلابتهم وكبريائهم. الأطفال يدفنون أنفسهم تحت ستر النجاة هربا من منظر البحر الهائج الذي خيل لنا وكأنه يستعد لابتلاعنا دفعة واحدة دون رحمة.

لم أكن أفهم لماذا لازلنا متشبثين بالحياة رغم كل الذي رأيناه ومررنا به. هل القادم يستحق منا كل تلك المحاولات في العيش؟.

لم نعبر ربع المسافة حتى توقف البلم بنا. أوقف معه أمالنا، ودعواتنا التي كانت تطرق أبواب السماوات. كل الذي نعلمه أن قلوبنا ستتوقف خوفا قبل أن نموت غرقا.

كان يجب علينا أن نحافظ على توازن البلم ريثما تأتي أحد السفن أو يصل الخبر إلى أصحاب رحلتنا هذه فيأتوننا ببعض الوقود لنكمل المغامرة. والدتي هي أكثر شخص كان هادئا طوال رحلتنا لم تتحرك بتاتا ولم تحرمنا من ابتسامتها التي تشع في قلوبنا ضوء الصباح بعد عتمة واقعنا ،

انتظرنا طويلا. قضينا يوم بأكمله ونحن على ظهر القارب المطاطي ننتظر مرور سفينة أو قارب صغير. يبدوا أن الناس قد هجروا البحر خوفا من غدره. حاولنا الاقتصاد بما تبقى معنا من الماء اليسير. الأب يدخره لزوجته. والأم تدخر حصتها لصغارها الذي كسى وجوههم التعب والخوف فصفرت ألوانهم.

انقضى أطول نهار في تاريخنا لتشتد عتمة الليل ويشتد معه الخوف. التزمنا الصمت لنسمع فقط صوت موج البحر الذي ما عدنا قادرين

على سماعه. الأطفال متمسكين بوالدتهم وكأنها الجنة. لم يحركوا شفاههم ولم يسقطوا دمعة واحدة خوفا من أن تخل تلك الدمعة بثبات المركب فنغرق جميعا،

الليل شديد الظلمة لم يكن هنالك نور. فالقمر مخسوف وكأنه تأمر علينا كما تأمر الجميع. شفاهنا قطعتها التثاوب بفعل النعاس لكن النوم سرق من عيوننا في لحظة مسروقة من حياتنا. قد نسينا النوم مع أول قذيفة وقعت في موطننا.

هل ما نحن به الآن نوع من أنواع الابتلاء؟

أم كتب علينا أن نموت هنا. وما نحن به الآن سوى لحظات أخيرة في حياة بائسة؟

الجميع يحدق بالوقت سواء من هاتفه أو من ساعة يده. لا أبراج لنتصل نطلب المساعدة ولا زوار على ظهر البحر لناديه. نعد الدقائق والثواني لشروق شمس يوم جديد. أبصارنا ارتفعت لتراقب السماء فربما يحدث معجزة فيشق نور الشمس عتمة الليل الآن.

سمعت والدي يتمتم بأيات وأدعية رافقها اسمي. يحصنني بالأذكار والأدعية وينسى الدعاء له أو لوالدتي. هل أنا مصدر الحياة لوالداي وبموتي تموت سعادتهم ليصبحوا أحياء أموات؟

الانتظار بدأ يطول والاستسلام للحياة أصبح أكبر. الجميع كانت تسقط من عيونهم الدموع الحارة التي خشيت أن تفتق المركب من حرارتها. حتى الرجال كانوا يبكون. أتدركون ما معنى أن تبكي الرجال؟

خيوط الشمس الساحرة بدأت تشق طريقها وسط الظلمة لتعلن خرجها وتعلن معها بداية يوم جديد. زقزقة الطيور وتحليقها من مكان إلى آخر. . كان هو الونيس الوحيد لنا والموسيقى الجميلة التي ننشغل بها ،الانتظار يسلب منا الراحة لا يجعلننا نغفو أو نريح عقولنا ولو لثانية واحدة من التفكير،

-هل سنموت؟

صوت الطفل تيم كسر الصمت الذي كنا قد غرقنا في لبه ليتابعه أحد الركاب قائلا :

-لا سننجو يا صغيري، أعدك

-هل ستتسع الجنة لنا جميعا؟

" لم تعد الأكاذيب تقنعنا فلقد نضجنا منذ أن شاهدنا منظر الموت أول مرة في حلب"

فهل ستتسع الجنة لنا جميعا يا أبي؟

الساعة الحادية عشرة صباحا،

كنا نرى الأمل من بعيد، قارب صغير يتجه نحونا وعليه راكبين، لوحنا لهم جميعا وصرخنا بأعلى أصواتنا (النجددددددة! نحن هناااا!). الابتسامة رسمت على وجوهنا الحزينة من جديد عندما اقترب القارب منا، بدأ الحوار بين أحد ركاب ذلك القارب وبيننا،

-لماذا أنتم هنا؟

أجبنا بصوت واحد،

-توقف بنا القارب ليلة الأمس ونحتاج بعض الوقود لإكمال الرحلة.

-لدينا ما يكفيكم من الوقود ولكن عليكم أولا دفع المال مقابل إعطائكم بعضه.

حتى في فعل الخير لا بد من استغلال البشر. كيف سنعيش وسط أناس تستغل وجود المال في جيوبنا؟ أليس هنالك من يرحم حالنا؟

بعد محاولات باءت بالفشل في إقناعهم أننا لا نمتلك سوى ما يعيننا على العيش في ألمانيا ليوم واحد فقط. اضطررنا إلى جمع ما تبقى معنا من المال لإعطائهم مقابل الوقود. إن كنا قد نجونا من الغرق الآن فحتما سنموت جوعا وعطشا عند وصولنا،

أكملنا رحلتنا التي تمنينا لو أنها لم تبدأ،لم نتحرك مسافة تزيد عن خمس مئة متر حتى صوب نحو مركبنا المطاطي سهم استهدف المركب ومن عليه. الماء بدأ يتسلل إلى الداخل وتنساب مع الماء أحلامنا التي رسمناها على شواطئ ألمانيا بعيدا عنا. الصرخات لم تتوقف. الجميع كان يطلب فرصة العيش من الله. النساء تناجي الله وتطلب معجزة تنجينا فأغلبنا لم يتعلم السباحة بعد. الأطفال متشبثين بوالدتهم وكأنها الحياة. يملأ قلوبهم اليقين بأن والدتهم ستستطيع حمايتهم من الغرق. بدأنا نتساقط في البحر واحد تلوى الآخر. . نودع العالم بدموع لم يكن يراها سوى الله. قضينا نصف النهار بين محاولة للنجاة وبين دعوات توقفها ابتلاعنا لماء البحر المالح.

أصعب ما قد يمر عليك أن ترى الموت أمام ناظريك يتخطاك ويخطف من أحببت ليتركك تصارع الحنين والشوق وحدك،

الجثث ترامت على شواطئ تركيا ومن بينهم من كسب فرصة عيش لم يتمناها. نجوت أنا وجدي ووالدتي وخمسة ممن كانوا معنا على ظهر المركب. حاولت التقاط أنفاسي بصعوبة وهرعت من حضن والدتي التي كانت تتشبث بي بقوة لأبحث بين الناجين عن جسد والدي الذي

كان جسد بلا روح. أهكذا يحن البحر علينا بأن يمنحنا فرصة تقبيل أحبتنا للمرة الأخيرة؟

ألا يمكنه أن لا يخون من لجئوا إليه لمرة واحدة فقط؟

تصبح الحياة رمادية لا لون لها عندما تحيا لأجل نفسك فقط. تصنع مستقبلا لأجلك وحدك. تمشي في الأزقة وكأن الشوارع لم ترى غيرك. لست قادرا على الحب خوفا من ساعة الفراق. تعيش ساعات يومك بثقل وكأن الدقيقة تكاد أن تكون شهرا ،العالم كله يقبع فوق كتفيك وعليك التحمل.

خانتني حروف الأبجدية أمام جثة والدي. وصوتي فضل أن ينكتم فما عادت الصرخات تجدي. وما عاد في المقلتين دموع لنذرفها. فلو كانت الدموع تحي الأموات لبكينا طوال العمر. كيف يموت الشخص الذي كان متشبثا بالحياة بكل ما أوتي من قوة ويحيا من تمنى الموت مع كل ثانية؟

جدي لازال يحاول السيطرة على كبريائه. يجفف وجه والدي ويقول (ألم أقل لك أن لا تخرج من حلب؟ أين هي الحياة التي كنت تبحث عنها بعيدا عن موطنك؟ نحن يا محمد نهرب من الموت إلى الموت. لا حياة لنا صدقني) ثم تخونه الدموع فيتوارى عنا كي لا نراها.

جدي لست من ماتت كل أحلامه وأحبابه. بل أنا من في قلبه مقبرة. أنا من أصبحت خواطره هشة سهلة الانكسار،

أنا من شاب منذ الصغر،

وأنا من يحتاج إلى شخص يلملم جراحه النازفة.

أرجوك دعنا نعد إلى موطننا يا جدي. يكفينا ما لقيناه في رحلة غربتنا. أرجوك ما عاد في القلب متسع للمزيد علينا الرحيل. .

جراحنا فتقت ولا مداو لها. كيف لقلوب تنزف أن تعيش كل هذا الوقت؟

أخبرني يا جدي أين يمكننا أن نجد موطنا يلملم خيباتنا؟ لا مكان لنا هنا علينا دفن جثة والدي والعودة للوطن. فما عاد لنا ما نكمل لأجله فمن كان يخطط للعيش في ألمانيا قد انتقل للعيش بعيدا عنها وعنا.

طلبت ممن كان حول جثة والدي أن يمنحوني فرصة الاختلاء به. كنت أحادثك يا والدي بلغت العتاب. .

عاتبتك كثيرًا على قسوتك لكنني ذرفت دموعا آسف فوق جثتك الباردة. .

حادثتك كثيرًا. طلبت منك أن تفتح عينيك لترى أين نحن الآن لكنك لم تجبني.

ما الذي سيحدث بنا بعد؟

من سيخطط لنا بقية الرحلة؟

لو كنت قد نجوت بدلا عني ما الذي كنت ستفعله؟

لا أعلم أين يجب أن ندفن جسدك؟ أندفنه في حلب التي عزمت على تركها؟

أم في أزمير الذي قضيت بها سنين تنتظر حتى حفظت حدائقها وشوارعها شكلك؟

أم علينا أن نكمل رحلتنا مع جثتك إلى ألمانيا لندفنها هناك حيث تمنيت أن تذهب؟

أرجوك يا أبي لا ترحل الآن. . لازلت صغيرا وأحتاج إلى حضنك وقسوتك كي أكبر. لا تكسرني برحيلك أرجوك.

نفضت التراب عن جسدك المبلل وغطيتك بمعطفي الصغير كي لا يحس جسدك بالبرد،

أحبك أبي.

وقفنا جميعا أمام جسده نتأمله للمرة الأخيرة. نذرف دموع آسف على حاضرنا. وندعو الله بأن لا نستمر بعده طويلا.

عدنا إلى ذات المكان الذي انتظرنا فيه اللاشيء (حديقة أزمير) ،كنا ننتظر الفرصة المناسبة للدخول إلى سوريا. لنعود إلى العيش كما كنا، نستيقظ على صوت الرصاص والقصف، وننام على صوت البكاء والشهيق. لا أظن أننا سنستطيع الذهاب إلى أوروبا بعد اليوم. . فمن كان يصارع لأجل الرحيل قد رحل، ومالنا الذي قضينا عمرنا نجمعه ذهب سدى. فمن الآن سيستقبلنا؟

-والدتي هل سنعيش في سوريا داخل خيمة أيضا؟ أم منزل جدي لازال على قيد الحياة؟

تجيبني بابتسامتها الهادئة التي لا تفارق وجهها،

-لا يا صغيري منزل جدك لازال كما تركتموه جميلا وشجرة الياسمين التي زرعها جدك في فناء المنزل لازالت تزهر.

كنت ولازلت أجهل جمال والدتي الذي طغى على ملامح التعب فأسارع لاسأل جدي عن سبب هدوئها وجمالها رغم الألم والأسى فيبكي ثم يقول لي(أين هي والدتك يا جهاد؟). فأرد عليه باستنكار (ها هي الى جانبي ممسكة بيدي ألا تراها؟) ،فيبكي بكاء الأطفال ثم يمسح دمعته ليقول اعذرني يا صغيري لم أنتبه الى وجودها ربما هو تأثير

التقدم في العمر، أمسح دمعته بكفي الصغير ثم أجيب لازلت شابا يا جدي. لقد فتنت النساء بحسنك وجمالك .

ينقضي يومنا ونحن ننتظر الفرصة للعودة فننام بخيبات أمل كبيرة لا تسعها صدورنا. ثم ينجلي الليل لنراقب شروق الشمس بكل برود.

في الصباح كان جدي قد غادر الحديقة باكرا ليعود وفي يده قطعة حلوى صغيرة لي. كانت في عيني وكأنها كعكة كبيرة من تلك التي يحضرونها في حفلات الزفاف أو ربما واحدة من تلك التي تتواجد في أعياد الميلاد. وقعت في غرامها، تأملتها كثيرًا وكأنني أكتشفها من جديد. نظرت إلى جدي بنظرات تملأها السعادة فقلت (من ماذا يصنعونها يا ترى؟) فيجيبني بكل حب (من الدقيق والشوكولاه). (وهل طعمها جميل كشكلها يا ترى؟) ،(بل أجمل هيا تذوقها).

تنفست رائحتها بعمق لأعيد شريط الماضي إلى ذاكرتي حيث كنت أجوب شوارع أزمير بحثا عن رائحة الكعك فأعود وأنا أسأل نفسي هل يا ترى طعمها سيكون كجمال شكلها؟، قربت فمي منها وبدأت بإلتهامها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتذوق بها طعم الكعكة التي تغرق بالكريمة وصوص الشوكولاه يزينها من الأعلى.

بعد استمتاعي بطعمها وانتهائي من تناولها. . استوعبت بأن جدي لا يمتلك النقود لشراء رغيف خبز فكيف له شراء قطعة من الحلوى؟

دارت في رأسي جميع الاحتمالات قبل أن أسأله. ربما هي صدقة؟

أو ربما وجد بعض المال ملقا في طريقه؟

بل ربما خبأ في جيبه بعض المال؟

-جدي من أين لك بالمال؟

- لا تخف يا صغيري لم أسرقها.

- لا لم أقصد ذلك ولكن الذي أعلمه أنك لا تمتلك المال فمن أين لك قطعة الحلوى هذه؟

- هي من الله يرزقنا من حيث لا نحتسب.

كان جدي يعمل على زيادة إيماني ويقيني بالله. يقص على مسامعي قصص عن الصبر ثم يلحقها بتعليمي بعض الأيات من القرآن. كان هو المدرسة التي لم أرتدد إليها يوما. جدي هو أستاذي وشيخي. فإن أصبت شجعني وإن أخطأت صحح لي بكل حب.

وبشر الصابرين

الخامس من أيلول،

الأعوام تنطوي وأعمارنا تتزايد والانتظار يطول،

بلغت عامي العاشر في حديقة أزمير التي بدأت تحفظ ذكرياتي وبصمة يداي على كل ورقة شجر لترسلها الريح إلى السماء بعيدا عن متناول أيدي البشر.

ربما بدأت أتأقلم مع المعيشة هنا. نوم في العراء، نأكل رغيف خبز كل ثلاثة أيام، ونشرب لترا من الماء بالتقسيط كي تكفينا لأطول وقت ممكن، نبحث عن عمل ليلا نهارا لنعود خائبين بلا عمل أو مال.

نحن هنا نبحث عن أرواحنا الضائعة التي فقدناها على الحدود بين سوريا وتركيا عندما أرغمنا على الهجرة رغما عنا وعن إصرارنا بالموت في أرض الوطن.

والدتي هي من كان منبع الأمل والدفء الذي يتدفق إلى سري. فكلما ضاقت بنا الحياة ألتفت إليها فأجدها تبتسم لي وتقول (كيف تضيق بك الدنيا والله وأنا إلى جانبك يا صغيري؟). فأطرق رأسي خجلا ثم أحمد الله كثيرًا وأرضى بما كتب لي.

بعد سنين لم أستطع عدها. . زف إلينا الخبر الذي انتظرناه مع أول دقيقة انتظار لنا في أزمير (الطريق الذي يؤدي إلى داخل سوريا قد أصبح آمنا نوعا ما). استغل جدي فرصة عودتنا مع عدد قليل من المهاجرين الذي عادوا خائبين أمثالنا بعد أن فقدوا أحدا من عائلتهم كما فقدنا.

بدأنا نعبر الطريق سيرا على الأقدام والقلوب التي في صدورنا تتراقص من شدة الخوف. كنت أجهل مما نخاف،

أنخاف من الموت الذي رأيناه وتعودناه؟

أم من الحرب التي كانت أحن من غربتنا القاسية؟

أو نخاف من أن يرفض الوطن وجودنا أيضا فنعود من حيث أتينا (إلى أزمير)

أشعة الشمس كانت دافئة لكنها باردة في ذات الوقت. لا أدري كيف؟ فمشاعرنا تداخلت ببعضها.

الطريق كان آمنا نوعا ما. لا رصاص أو حواجز. فلو لم أرى علم سوريا الذي يحلق في سماء الوطن لشككت بأن هذه ليست سوريا.

عدنا إلى ريف حلب ومن ريفها إلى حلب حيث منزل جدي الذي لازال ينتظرنا كما تركناه. بدأ جدي يشتم رائحة الياسمين ويبكي. ثم يتحسس جدران المنزل ويقول (أكان لي قلب عندما قررت أن أتركك

يا منزلي؟). ثم يسير إلى أن يصل إلى غرفته التي جمعت ذكرياته مع جدتي ستين عاما فيصرخ ويردد (أعيدوني إلى أزمير حيث لا رائحة أمينة (جدتي) هناك ولا طيفها).

-أكنت تحبها كل هذا الحب عندما كانت على قيد الحياة؟

-لا، بل كنت أعشقها حيث لا سعادة بعيدا عن عينيها.

-أكانت جميلة.

-لن أستطيع وصفها لذلك سأريك بعض الصور لها .

أجلسني إلى جانبه وبدأ يقلب بالصور أمامي. كانت تشبه والدتي إلى حد كبير. حسناء ذو شعر أسود كالفحم طويل ومجعد نوعا ما. وعيون عسلية ترد للأعمى بصره. وبشرة بيضاء تميل للصفرة.

حدثني عن قصة كل صورة وأين تم التقاطها. يقلب ويبتسم إلى أن وصل إلى صورة تجمع أفراد العائلة جميعها فيبكي ويقول (غادرتم جميعا وتركتم العجوز وحيدا يهلكه الزمن فمن لي الآن بعد رب خلقني ؟).

أقلب نظري بين وجه والدي الذي أغرقته الدموع وبين والدتي التي لازالت تبتسم بهدوء فأقول قاصدا بكلامي جدي :

-لا تقل ذلك مرة أخرى كي لا تحزن والدتي.

يتأمل في وجهي طويلا ثم يمسح بكفه على رأسي ويخطفني إلى حضنه ويمطر على رأسي دموع الألم والحرقة.

في الصباح خرجت مع جدي الذي بدأ يتعود السير على قدم وعكاز لنتجول في أزقة حلب أو بمعنى أصح في الخراب الذي عم أرجاء حلب. حلب كانت هادئة لأول مرة منذ بداية الحرب. لم يكن هناك صوت رصاص أو بكاء يشق عنان السماء.

كانت جميلة رغم الدمار الذي لم يبقي شيئًا جميلا إلا وأفسده.

-انظر يا جهاد هنا كان يوجد متحف أثري يحمل بداخله أجمل التحف وأقدمها. .

ثم يدير ظهره ويكمل :

-وهنا في الضفة الأخرى كان يوجد حديقة تعتبر من أجمل حدائق حلب يقصدها السواح وأهالي حلب ومن ضمنهم أنا وجدتك.

- يبدو أن لتلك الحديقة قصة لم تروها لي بعد.

- تماما، ففي تلك الحديقة وعلى أحد مقاعدها التقيت بجدتك ولأول مره. ثم أصبحت هذه الحديقة مقصدي الدائم.

(الحرب تفسد كل شيء جميل. وتدمر كل الأماكن التي احتفظت بأجمل ذكرياتنا وأقبحها) قالها جدي وفي صوته نبرة ألم وحسرة على أيام لن تعود حتى وإن انتهت الحرب.

في نهاية جولتنا ساقني جدي إلى أرض صغيرة لا يوجد بها إلا شجرة أيبستها الهجران. . ثم أشار بيده إلى الأرض ليلفت انتباهي إلى قبر وضع بجانب الشجرة. سألته (أهذا قبر جدتي؟). (لا بل منزل جدتك وخالتك وأحفادي) ،(وزوجها أين دفن؟). (معهم. .). ساد الصمت للحظات ندعو بها لموتانا ثم ينطق جدي معلنا عن انتهائه بالدعاء لهم (ليتني استطعت أن أدفن والدت،). (تدفن من؟). (لا أحد فلنعد للمنزل).

عدت إلى المنزل حيث والدتي تنتظرني لأركض نحو حجرها. ثم أنام على صوتها الشجي.

انتهت فرصة راحتنا من أصوات الرصاص لتعود من جديد في اليوم التالي وتعود معها محاولات الهرب البائسة.

إصراري في البقاء والجهاد لأجل نفسي كان أقوى من قطعة حديد تسقطها الطائرات لتقتل أحلامنا قبل قتل أجسادنا.

أصبحت أتردد إلى أحد المساجد الذي يلقي فيها الشيخ محمود (من الشيوخ القلة الذين لازالوا في حلب) دروسه على مسامع الطلاب الذين لم يستطع الموت أن يمنعهم من العلم. أذهب إلى دروسه يومين في الأسبوع أحد وثلاثاء. ففي الأحد نستمع إلى بعض دروس الدين وقصص لبعض الأنبياء والصالحين. وأما الثلاثاء فنحفظ بعض آيات القرأن ومعانيها.

دروس الشيخ محمود كانت حياة جديدة بالنسبة لي. كنت أرى المسجد مسجدًا ومدرسة ومنزلا. دروسه كانت تزرع في داخلي شيء غريب أحسه لأول مرة أشبه بأن يكون يزرع بداخلي طفلًا جديدا يكبر على دروسه فقط.

الحياة بلا علم كالحياة وحيدا في كوكب لا يحمل على سطحه سواك.

لم تكن دروسه تقتصر علي وحدي بل كنت أحفظ دروسه بقلبي ثم آتي مسرعا الى والدتي وجدي فألقي ما حفظته عليهم. وهكذا كنت طالبا عند الشيخ محمود وأستاذا عند والدتي وأبيها.

مسجدنا كان آمن إلى الحد الذي يلجأ إليه سكان حلب ليحتموا بداخله من الموت. كنا نصنع من ترديدنا لآيات القرأن درعا صلبا يحمي جدران المسجد ومن بداخله.

السادس من نوفمبر

إنه اليوم المشئوم. اليوم الذي كنت أهرب منه بعيدا إلى المجهول، اليوم الذي لم أتمنى مجيئه فإن أتى أهلكني.

كنت في ذلك اليوم قد بلغت عامي الخامس عشر. أصبحت الآن في نظر جدي رجلًا ناضجا أكثر من ذي قبل، شخصا أكثر تقبل للواقع وأكثر قوة وصلابة مما مضى. فلم يعد يراني طفلًا فبعد دروس الشيخ محمود وأثرها في نفسي أصبح جدي يراني كل شيء إلا كوني طفلًا. قوي. صلب. أكثر فهم للحياة. وسلاحا للوطن.

أتاني تلك الليلة ليخبرني بما أجبر على كتمه. بالواقع الذي كنت أراه لكنني أتغافله. بالشيء الوحيد الذي لم أكن قادرا على تقبله أو الجدًال فيه.

جلس إلى جواري. ضم يده إلى يدي، نظر في عيناي ثم ابتسم. كانت يتجهز لتفجير قنبلته بداخلي (جهاد أريد محادثتك بأمر ما)

أجبته إجابة الخائف من القادم،

-ما هو؟

- من يسكن في هذا المنزل؟

علامات الاستغراب كانت ترى من وجهي لكنني كنت مضطرا إلى مسايرة جدي حتى النهاية.

-أنا وأنت ووالدتي.

- لا بل أنا وأنت فقط يا جهاد.

أردت الهرب من مواجهة الحقيقة لكن إلى أين؟ كل الذي فعلته أنني ابتعدت عن واقعي والعيش حيث توجد والدتي (في الوهم). جادلته وحاولت إقناعه لعله يعش معي في وهمي فقلت مكملا. .

-كيف ذلك؟ فوالدتي في المطبخ تعد لنا الشاي. أما عدت تنتبه إلى وجودها يا جدي؟

اتكأ على عكازيه ونهض قاصدا المطبخ. تأمله جيدا، بحث في زواياه ولكن لم يرها،

-جهاد لم تعد صغيرا يجب عليك أن تصحو لتعيش معي هنا في الواقع.

- أي وهم ذاك الذي تتحدث عنه؟

- والدتك، والدتك لم تعد سوى وهما يا جهاد. فقد توفيت منذ أن كنا في حديقة أزمير، أماتها البرد والجوع.

- ليس صحيحا يا جدي فكلنا أموات ووالدتي حية.

أراد أن أستفيق من وهمي لكنه قتلني وقتل قوتي. فأي حياة تلك التي يريدني أن أستفيق لها؟

نحن الأبناء نفقد أنفسنا عندما ترحل أمهاتنا. نصبح غرباء بعيدا عنها فهم أوطاننا. فلا حياة لنا بعدهن لذلك نرحل عندما يرحلن فنسكن في عالم الوهم حيث طيوفهن هناك.

(يجب عليك البكاء يا جهاد. فمنذ وفاتها وعيناك لم تذرف دمعة واحدة. يكفي كبرياء ستهلك نفسك) قالها جدي محاولا إصلاح ما أفسده.

من قال له أنني أريد أن أستفيق للواقع؟

من أخبر جدي أنني تعبت من العيش في وهم والدتي؟

من أخبره أن يقتلني؟

حاولت البحث عن حضن أمي فلم أجده. أنا اليوم أغرق في دوامة من السواد يا أمي. اليوم أماتني جدي عندما أجبرني على الإستفاقة للواقع.

اليوم أنا جهاد آخر، أنا اليوم جسدا بلا روح.

أريد أمي يا الله.

***

أحد أيام الصيف الحارة حيث الشمس أشبه بالجحيم. العرق يبلل ثيابنا. والطيور تكاد تسقط وقد شويت سلفا، أمسكت أمي بيدي. أبعدتني عن الدنيا ومن عليها إلى حضنها حيث الوطن والأمان، داعبت خصلات شعري الأسود القصير ثم همست في أذني

"إن استيقظت ذات ليلة ولم تجدني فابحث عني بين ألعابك ستجدني هناك. ألاعبها ريثما تأتي، أو ربما ستجدني عند باب المنزل بجانب الريحانة الخاصة بك أغني لها كنوع من الاعتذار بعدما شكت لي عن هجرك لها وانشغالك باللعب بعيدا عنها. أمسح دموعها التي شكلتها قطرات الندى على أوراقها. "

ها أنا ذا يا والدتي أهرول إلى حجرتي حيث ألعابي المتناثرة بشكل فوضوي. أجدك تلاعبينهم عوضا عني. أراك ولا أستطيع لمسك. تفردين لي ذراعيك لأرتمي بحجرك فأركض بلهفة العاطش للماء لكنني في النهاية أرتطم بالجدَّار.

أداوي مرض الاشتياق بالدعاء لك. ولكن ما الذي يداوي جرح طفل فقد حنان الأب والأم دفعة واحدة ؟

من يمسح دمعة روح تبكي بداخل جسد شاب؟

لازلت أوتر نصف ليلي أدعو لك بأن يكون مسكنك جنة الفردوس حيث لا رصاص ولا قنابل.

أصبحت كثير التردد إلى قبر جدتي أو بالأحرى القبر الذي جمع جثث العائلة فأصبح منزلهم الجديد. أجلس إلى جانب القبر أدعو لهم ثم أحادثهم، أصف لهم شكلي، كم أصبح عمري، مغامراتي التي قضيتها بعيدا عن منزلنا. ولا يخرسني سوى الشمس التي أسرعت بالغروب هربا من ثرثرتي فأعود وقد تعب كل شيء في جسدي عدا لساني.

***

في المنزل جدي السبعيني أعد العشاء وبدأ يحتال على الدقائق لتمر مسرعة فيحين موعد عودتي. لم يكن عشاءا كما ستظن أيها القارئ لم يكن سوى (قطعة خبز يابسة بللت بماء دافئ كي تلين. ونصف كأس شاي قد أعيد غلي أوراقه أكثر من ثلاث مرات).

نفس الوجبة نتناولها في الصباح والمساء. لا لحم في قائمة طعامنا، لا أرز ولا خضار، لا فواكه أو حلويات. هنالك حرب، إذا لا عمل. ولا عمل. . إذا لا مال. ولا مال، إذا لا طعام أو ثياب جديدة.

محاولات جدي التي لا تعد جميعها كانت تذهب سدا فلا عمل يناسب عجوز بقدم واحدة فجميع الأعمال هنا تحتاج لبنية جسد قوية مما جعله يستسلم للقدر وينتظر أيامه لتنتهي كما ينتظرها الجميع.

أظن أن الحرب لن تنتهي قبل أن تنهينا جميعا.

***

طبيب بلا شهادات

نحن كسحابة تحركها الرياح كيفما تريد وأينما شاءت. نضطر إلى رمي أقنعة الضعف عن وجوهنا لنلوح بأقنعة القوة. . فلا مجال للضعف. وليس هنالك فرصة للخطأ وإلا ستصبح كورقة شجر يابسة تحركها الرياح فلا تستقر في أي مكان.

كان يتوجب علي البحث عن عمل يعينني ويعين جدي على مقاومة الحياة. عملت في مجال بيع المناديل وما شابهها على الأرصفة والشوارع. . أسير بين السيارات والشاحنات، فوق الركام وعلى الحواجز. أنادي " من يشتري منديل؟ من يشتري من فقير؟ "

كنت أبحث عن من يشتري شيئًا مما أحمله بين يديَّ علي أعود برغيف خبز ساخن إلى جدي آخر النهار.

الحياة ليست كما نشتهي بل أسوأ مما نتمنى. لا أعلم هل هو سبب لذنب جهلناه؟

أم لأن الرب أحبنا فابتلانا؟

لم يكن أمامي خيارات سوى الاستسلام لقدري ومحاولة التعايش معه لأجل جدي فقط. الرجل الذي حارب قدره وابتسم لأجلي،

السبعيني الذي علمني كيف أعيش رغم القهر والإنكسارات،

العجوز الذي لان عظمه وتقوس ظهره،

أنتهي من دروس الشيخ محمود وأسابق الدقائق بحثا عن مشتري بين كومة فقراء. واسوأ أيامي هي التي أعود ليلا ولم أبع شيئًا لأبتع رغيف خبز لجدي.

" أين أنت يا والدتي؟ أصبحت لا أتقن العيش سوى في الأحلام حيث أنتِ هناك "

نادرة هي الأيام التي أعود إلى جدي وقد بعت كل الذي كان معي. وكثيرة هي الأيام التي كنت أعود إليه فيها ودموعي تغرق عيني لأنني سأنام ومعدتي فارغة.

" من يشتري مني منديل؟

من يشتري وردة يهديها لحبيب؟

من يريد إسكات معدة فقير؟

من يشتري مني؟ "

أصبحت أرددها أكثر من أي شيء آخر. اليوم أنا أشعر بكل فقير،

الحرب جعلتني أشعر بالفقير الذي ينام وهو يحلم بقطعة حلوى صغيرة، اليوم أنا أعلم ما هي أحلام الفقراء الكبار والصغار،

أشكرك أيتها الحرب لأنك علمتني كيف يموت الغني ويعيش الفقير.

الخامس والعشرين من أبريل

منظر الدماء الذي بات يجري عوضا عن الأنهار. .

والجثث التي وزعت في الطرقات بدل الورد والشجيرات،

الكيماوي والغازات السامة هي عطورنا الآن بدل الفل والياسمين،

الرصاص وقطع الحديد أصبحت اليوم ألعاب الأطفال بدل الدمى والكرة. .

ذلك هو وطني الجديد،

لقد اغتالت الحرب كل شيء في وطني ولم تبقي لنا سوى كومة رماد لا يستفاد منه.

فما عادت الأمهات تحيك لأطفالها مستقبلا من كومة أزهار وحكايات. وما عاد الأباء يرسمون لأبنائهم صور ماضيهم حيث البساتين والحقول وطيور السلام التي تحلق في سماء الماضي. حيث الشموع بدل الكهرباء والحصيرة عوضا عن السرير. أين نحن الآن؟ الموت يتلبس الجميع. والقسوة أصبحت هي من تحكم قلوبنا.

(أنتم أطفال الغد. والهدف الأول للعدو اليوم) قالها الشيخ محمود نهاية درسه بصوت منكسر. لم نعلم أهو أمل بأننا سنحيى ونصبح صناع الغد. أم أننا سنمت اليوم لأننا الهدف الأول للعدو؟

أغلقت مصحفي وسلمت على الشيخ وهممت بالخروج من المسجد لكن هذه المرة ليست إلى البيع في الشوارع وإنما إلى حلم رسمه لي الشيخ محمود في كلماته. قررت الذهاب إلى أحد المستشفيات التي تعج بالجرحى والضحايا لأتتلمذ على يد أحد الأطباء وهكذا أصنع من نفسي طبيب بلا أي شهادات. فهنا أنت لست بحاجة إلى مدرسة أو كتب فالحرب ستجبرك على تعلم كل شيء.

الطبيب (بسام) رجل يبلغ من العمر أربع وخمسون عاما. للشيب نصيبا أكبر من شعره الأسود. عيناه زرقاوان كزرقة مياه البحر. طويل القامة. سخر عمله وشهاداته في الطب لمعالجة الجرحى دون أي مقابل. كان هو معلمي أقف أمامه عندما يخيط الجراح ويزيل الرصاص والشظايا فأتقن بعض الدروس بالنظر ثم نلجأ إلى التطبيق على أحد الدمى وقت فراغ الطبيب بسام قبل البشر.

تلك الليلة التي قبل بها الطبيب بسام تدريبي بصدر رحب. عدت إلى جدي مبتسما أحلق فوق مرارة الحياة وأشواكها. أعبر بسفينتي فوق الدماء،

وعلى بعد ثلاثة أمتار أو أربعة من منزل جدي (لا أذكر). كان هنالك ثلاثة رجال بلباس عسكري وآخر بلباس مدني يطرقون منزل جدي

بقوة. يخرج جدي مبتسما وسرعان ما تغتال الابتسامة من وجهه. يجري حوار أصم بالنسبة لي لبعدهم عني لكنه يبدو أنه حوار عنفواني تحكمه حركاتهم العنيفة. لم يلبث الحوار أكثر من دقيقتين تقريبا حتى انتهى بصفع الرجل ذو اللباس المدني جدي السبعيني واقتحام المنزل بالقوة. أظن أن الاقتحام كان للتفتيش عن أمر معين كسلاح مثلا أو عن هارب من بين أيديهم. لم أستطع التقدم والدفاع عن جدي ربما الخوف كان يكبل قدماي من أن يصبح مستقبلي هو عتمة سجن بارد.

بعد ما يقارب النصف ساعة خرج الضابط يلحقه عساكره الثلاثة وقبل المغادرة التفت الضابط إلى جدي وبدأ بمحادثته والإشارة إليه فسرتها بالتهديد. وما أن ابتعد الضابط ورجاله حتى أسرعت إلى جدي. استقبلني بابتسامته التي عودني إياها. كانت عيونه تغرق بالدموع من الداخل. والمنزل يعج بالفوضى. سألته عن سبب مجيء الضابط وعساكره؟ لكن ما من إجابة تخرج من فم جدي. رجوته. قبلت يداه. أعدت طرح السؤال عدة مرات وبطرق مختلفة لكن ما من إجابة. حدق في عيناي كثيرًا. تأملني من جديد ثم قبل جبيني وغادر إلى غرفته ليخرج جواز سفري وأوراق لم أعرف ما هي بعد وورقة بيضاء من دفتره الذي تكوم فوقه غبار الذكريات. كتب عليها ما لم أستطع قراءته

لجهلي. ثناها مرات عديدة، قبلها ثم وضع جواز سفري في يدي اليمنى واليسرى كانت تحمل تلك الورقة ذات القبلة الجافة. أمرني بالذهاب فورا وقبل منتصف النهار إلى رجل يدعى أيمن يسكن في منطقة تبعد عن منزلنا ما يقارب النصف ساعة لأعطيه الورقة ذات المحتوى المجهول.

كان يتوجب علي التنفيذ بلا أي أسئلة أو اعتراضات. ربما لأنني لا أقوى الامتناع. فكلمة (لا) كانت من الكلمات المحظورة في دستور جدي.

أمسكت الورقة. تشبثت بها وكأنها جدي. أو ربما عود الخشب الصغير الذي يستنجد به الغريق. بحثت كثيرًا عن منزل أيمن. سألت سكان المنطقة عنه وما من جواب يريح جسدي المتعب. طرقت جميع الأبواب وما من باب يقتن خلفه أيمن.

بدأت الشمس تعلن ذهابها متوعدة بالعودة غدا. كان يتوجب على العودة فأحد قوانين الحرب "لا خروج بعد غروب الشمس" وإلا ستصبح ممن تدرج أسمائهم في قائمة المفقودين.

عدت بخيبة أمل لا يسعها صدري. إلى اللا مكان. إلى الفراغ الأسود، إلى خيبة أمل جديدة، إلى اللا منزل، وإلى اللا عائلة.

عدت لأرى حلمي قد تحطم مع المنزل. والأمل قد مات مع جدي.
قذيفة، قطعة حديد أطلقتها أحد الطائرات لتكون هدفها هي منزل جدي، لقد مات. نعم مات لطالما انتظر هذا اليوم ليغادر إلى حيث زوجته وبناته. اليوم الذي سيدرج اسمه في قائمة شهداء حلب.
إنه الثلاثاء :
اليوم الذي سيخلد في ذاكرتي باليوم الأسود. إنه يوم من أيام الجحيم.
اليوم الذي فقدت فيه آخر بصيص أمل كنت أحيا لأجله. .
واليوم لأجل من سأعيش؟
ولمن سأروي قصصي التي سأختزلها في قلبي؟
تبا لك أيتها الحرب كنت كالنار التي أتت لتبتلع كل شيء قبل أن تغادر.
لماذا لم أكن أحد أهدافك. لماذا تركتني أصارع وحدي يا جدي؟
لماذا أبعدتني عن الموت؟ لقد ظلمتني بمحاولتك إنقاذي.
(الله أكبر، الله أكبر)
تكبيرات المنقذين كانت تشق مسامعي. إلتفت لا شعوريا لأراك تخرج من تحت الركام واللون الرمادي قد اختلط بالأحمر. تهيأ لي أنك تبتسم، لا بل كنت حقا تبتسم. هل كنت تعلم أنك ستموت لذلك أبعدتني عنك؟

لماذا أنقذتني يا جدي؟ كنت أطلب الموت قبلك فلماذا تعداني؟ ألأنني لم أخشع كما ينبغي في دعائي؟

لماذا أنت يا جدي من بين جموع الناس؟ لماذا عائلتي؟ لماذا لست أنا؟

ربت على كتفي جار جدي وصديق طفولته وقال بصوت جريح :

-جهاد اليوم يرتقي جدك ليصح شهيدا،

أتعلم يا جدي أنني وحتى الآن لم أذرف الدموع على رحيل والدتي بعد؟ فمازال قلبي ينزف والعيون جافة وكأنها صحراء قاحلة فما عاد في العين دموع. عجيب أمري قلبي ينزف كل هذا الوقت ولازلت على قيد الحياة؟

هل حان الوقت لأبكي؟ لأذرف دموعي مرة واحدة؟

تقدمت إليك حيث الحشد الكبير من البشر يحيطون بك. منهم الذي يبكي. ومنهم الذي يدعوا بأن يصبح الفردوس مسكنك. ومنهم من يكبر الله. .

أتعلم، لقد كنت جميلا رغم الخراب الذي كان يملأ جسدك. كنت ملاكا يا جدي ،

لأول مرة لم تكن بها عجوزا كنت طفلًا صغير. بل ربما كنت كعصفور خرج للتو من قفصه ليصبح حرا. نعم فاليوم أنت عصفورا حرا تحلق بعيدا جدًا حيث لا رصاص ولا دمار. .

قبلت جبينك. بكيت على صدرك. رجوتك كثيرًا أن تفتح عينك لكنك لم تكن تسمعني. كنت أبكي كطفل في الخامسة من عمره فقد والدته بين جموع من المارة. بكيت، وبكيت، وبكيت إلى أن فقدت الوعي تماما وأصبحت كالميت. لا بل كنت ميتا فعلا.

فتحت عيني بهدوء لأجد نفسي في ساحة خضراء تملأها الزهور البيض والحمراء. ملقا في حضن أمي وأبي يعزف لنا على أوتار الناي. جدي يسابق خالتي وجدتي تعد لنا الشاي على كومة حطب، أغمضت عيني وعاودت فتحها مجددا لأجد نفسي مرميا على سرير أبيض وأنبوب المغذي يلتصق بوريدي. والطبيب بسام يستمع إلى دقات قلبي التي أبت أن تتوقف.

أهكذا هي الحرب تنهي كل شيء قبل أن تنهينا؟

علمت لاحقا من الطبيب أنني كنت أحضن جدي بقوة وكأنه كل شيء بالنسبة لي. حاولوا إبعادي عن جدي بالقوة (وهذا آخر ما أذكره). ثم

بدأت نبضات قلبي تضعف إلى أن توقفت لثوان معدومة ثم عاود النبض من جديد. .

أنا أيها القارئ الميت الذي عاد للحياة. .

أنا الذي أفاق على دنيا جديدة وحياة أمر من سابقها،

أنا الذي ولد من جديد بقلب عتيق وذكريات سوداء،

أنا الذي أبت الحرب أن تهلكه،

ومن الذي قال للحرب أنني أريد النجاة منها؟

أين هي رصاصات البنادق عن قلبي؟

وأين هي الصواريخ والقذائف عن جسدي؟

لمن سأعيش اليوم؟

ولأجل من سأفكر بالغد؟

آخرجت الورقة البيضاء من جيبي وطلبت من الطبيب بسام أن يقرأ لي ما كتب فيها جدي،

كتب : (إلى صغيري جهاد،

سامحني إن كنت سأبعدك من جديد عن الموت الذي تنتظره. لكن يجب أن تعيش لأجل حلب ولأجلنا،

أنا اليوم سأموت يا جهاد. سأذهب إلى والدتك وأخبرها أنك تحبها وأنك قوي كما كانت تريد. حافظ جيدا على جوازك وبقية الأوراق ستحتاجها عندما تقرر زيارة قبر والديك،

أخيرا أريد منك يا عزيزي أن تعيد بناء منزلي كما كان وكأنه لم ينهدم. وتزرع فيه شجرة الليمون والياسمين والغار.

أحبك جهاد.

أخطت قلبي دون تعقيمه من جروح الماضي. أرقعته فوق الألام والحسرات. سكبت على الجروح ملحا وسخرت نفسي لشعبي فكنت لأيتامهم أبا ولجريحهم مداوي ولنسائهم حارسا وعونا بعد الله. أرمم في الصباح منزل جدي وفي المساء أرمم الجراح،

أرمم منزل جدي لألم شملي بطيوف عائلتي. فاليوم لن أستفيق لواقعي ولن يكون هنالك من يسرقني من وسط أوهامي فجدي قد مات،

لا موطن من غير أم. ولكن الأم هي كل الأوطان.

***

ذاكرة تعج بالسواد

الثامن والعشرون من تشرين الأول.

الأوراق الصفراء موزعة في الطرقات كنوع من أنواع الزينة التي تخبرنا بأن حلب لازالت جميلة.

ذلك اليوم كانت القذائف كزخ المطر. المستشفيات تشتكي من تراكم الجثث والجرحى. الدم ينساب من تحت أقدامنا كالنهر. تلك كانت هي المرة الأولى التي أرى بها حلب ضعيفة تموت وليس بوسعنا فعل شيء. إنها مجزرة حلب.

لا مساجد لترفع فيها الأذان، لا دكاكين لنشتري منها، ولا صوت إلا صوت البكاء والتكبيرات.

فضلت الخروج من المستشفى ومرافقة المنقذين لإنقاذ من دفنت أجسادهم تحت الركام. فمشهد المستشفى كان أقسى من أن يتحمله قلب طفل لازال في الخامسة عشر من عمره.

سرنا إليهم بخطوات سريعة تحكمها الوقت. كانت أرواحهم معلقة بين السماء والأرض. . يرون الموت فيدعونه إليهم. . لكن إما أن يجيب أو يتخطاهم.

آخرجنا أطفالا تبكي وأخرى أغلقت عينيها وحلقت نحو الجنان. ونساء تبكي لأنها خرجت من تحت الركام بلا حجاب تنادي بصوت منكسر "دثروني، دثروني".

ومن بين الناجين خرجت امرأة من أسفل الحجارة يبلل جسدها الدم ودموعها تنهمر فوق جروحها تضرب على صدورنا وتقول،

-جهاد. . جهاااد.

تمسمرت في مكاني وللحظة رأيتها والدتي تناديني. تدعوني لأرتمي في حجرها وتبكي لأنني هجرتها.

استفقت للواقع ورأيت تلك المرأة تأتي إلي بخطوات ثقيلة. أمسكتني من كتفاي وبدأت بهزي تناجيني وتقول. .

-جهاد طفلي الأول والأخير هناك تحت الركام آخرجوه أرجوكم كما آخرجتموني.

عادت إلى مخيلتي صورتها. مسحت دموعها بكفي ثم حضنتها بقوة ولم أستفق لواقعي إلا عندما صفعتني بيدها على وجهي.

تجمعنا حول المكان الذي أشارت إليه. أزلنا الحجارة بقلوب كادت تتوقف خوفا. نرفع حجارة ونكبر الله بعدها ألفا. ندعو الله بأن نستطيع إنقاذ أرواحا على حافة الموت.

بكيت كثيرًا عندما لمحت شيئًا من جسد جهاد الرضيع. تخيلته أنا عالقا تحت كومة ركام أنادي الموت قبل مجيء المنقذين. التفت لا شعوريا إلى أمه وإذا بها تكبر وتصلي لله على كومة الركام وتدعو الله أن ينقذ طفلها.

اقشعر جسدي وأحسست ببرودة داخلي لم أشعر بها قبل. لقد هزت وجدي وكياني فأي امرأة تلك! وأي نساء العالم أنتن؟ فبين صراع الحياة ودماءها التي تسيل على جسدها وطفلها الذي يصارع الموت تكبر وتصلي لله بخضوع وخشوع،

أكانت والدتي تصلي وتدعوا الله بأن تلدني قبل وفاتها؟ إن كانت كذلك فلا بد بأنها دعت وصلت بخشوع.

(الله أكبر، الله أكبر)

عادت تكبيرات المنقذين تعلو وتشق طريقها

إلى مسامعي. جهاد الطفل الرضيع أحمله بين يداي يبكي من وجع ثقل الحجارة عليه. وأمه لازالت تسجد وتبكي إلى أن سمعت صرخات طفلها،

تقدمت إليها ومع كل خطوة كان صوت جهاد يخف ويخف إلى أن وضعته في حجر والدته فسكت.

- ليس الآن يا جهاد، افتح عينيك يا صغيري لا تنم لازال الوقت مبكرا، أجائع أرضعك؟ أم تعب أداويك؟

قالت تلك الكلمات ثم فاضت عيونها ببحور من الدموع تكاد تجري فوقها سفن العذاب.

جعلت فم رضيعها على صدرها تبكي وتردد بصوت جريح،

-اشرب يا جهاد، اشرب يا صغيري فاليوم لم تشرب من لبني شيئًا.

أي مشهد ذاك؟

أم تضع رضيعها الذي مات في حجرها. تبكي وتحمد الله،

تقبل جبينه وتمسح الرماد والدماء عن جسده الصغير.

تقبل يديه وجبينه وكل بقعة من جسده،

تداوي جراحه رغم أنه ما عاد يشعر بألامها.

تهمس في أذنه تذكره بيوم ولادتها به وتصف له فرحة قدومه،

فأي فقد أشد وجعها. أن تفقد الأمهات أطفالها؟

أم يفقد الأطفال أمهاتهم؟

أتيت إليها مواسيا فقلت لها بصوت يملأه الحزن والأسى.

-ذهب جهاد وبقيت أمه لتنجب جهادا آخر. .

رفعت مقلتيها وتأملتني كثيرًا. رأت دموعا حبيسة في تلك العينين لم تستطع الخروج. ألقت بنظرها إلى الأرض قليلا ثم التفتت بشكل مفاجئ وأشارت بيدها إلى ركام منزلها وقالت،

– أعيدوا رضيعي إلى مكانه (وأشارت نحو كومة الركام) هناك من حيث آخرجتموه. فصغيري يخاف الشارع ، أعيدوه لينبت فوقه شجرة ياسمين بيضاء.

كانت تتقدم بثبات. أمسكت رضيعها وأعادته إلى حيث ما كان. ارتمت إلى جواره ثم بدأت تكب الحجارة على جسدها لتدفن معه،

وسائل الإقناع والمحاولات بأن تترك رضيعها وترافق المسعفين كانت عديده لكنها بائت جميعها بالفشل.

اضطررنا إلى القوة، أمسكناها من كلتا يديها وبدأنا بجرها. ترفس بقدميها أجسادنا، تسب وتشتم، تنادي جهادا لكنه يساق إلى التراب قبل أن يعرف ما هي الدنيا.

إبرة المهدأ تغرز في جسدها النحيل. تغمض عينيها بهدوء ولازالت شفتيها تتحركان تنادي بهما جهاد.

لففنا قطع القماش فوق جراحها بعد أن أوقفنا النزيف. ووصلنا أنبوب المغذي بيدها، وتكفلت أنا بمراقبة حالتها.

جلست إلى جوارها أتأملها، انها تشهبك يا أمي. سمراء جميله كجمالك. نحيلة وكأنه جسدك. . أيعقل أنك عدت إلى الحياة من جديد؟

تأثير إبرة المهدأ بدأ يزول وشفتيها عاودت ترديد (جهاد، جهاد،) وكأنها لا تحفظ غير اسمه.

كان يتوجب علي فعل أي شيء لأجلها فلم أكن أريد لأمي أن تموت مرتين. قربت فمي من أذنها وهمست،

-ها أنا هنا إلى جوارك.

كررت هي:

-جهاد. . جهاد.

همست من جديد. .

-نعم جهاد ولكن لم أعد طفلًا فقد أصبحت رجلًا يا أمي.

فتحت عينيها بتثاقل. بحثت عن طفلها لكنها ما وجدت غيري. سألتني بانكسار. .

-أين جهاد؟

أجبتها بإبتسامة صنعتها على وجهي لأجلها. .

-أنا هو طفلك الذي كبر، أنا جهاد.

تساقطت من عيناها الذابلتين دمعة حارة ثم أغلقت عينيها ونامت حتى الغد.

نحن أرواح علقت في أجساد غير أجسادنا وعند مفارقة تلك الأجساد للحياة تنطلق أرواحنا إلى اللا مكان. إلى حيث لا حياة. تصبح معلقة بين السماء والأرض فلا هي تستطيع العيش ولا هي تستطيع إكمال طريقها نحو السماء.

***

حنان

اللحظة التي قبلت بها الزواج بعمار كنت قد جنيت على نفسي بحياة تعيسة لا سعادة في تفاصيلها.

كنتُ أعلم أن الحب أعمى لكن ليس إلى الدرجة التي يجرك بها إلى النار دون أن تراها.

عمار كان يسلب مني كل شيء. ثروتي، جمالي، وحتى أنوثتي.

أبسطها ليلة زفافي. الليلة البيضاء التي تحلم بها كل فتاة كانت بالنسبة لي كابوس. بل ربما ليلة سوداء تقطر دما من شفتي عمار. لقد كان تحت تأثير المسكر فدخل إلي واقترب مني ليضربني ويتوعدني بليال لا يوجد فيها ما يسمى الفرح.

إن كنت ستسأل نفسك أيها القارىء كيف لم أعلم قبل زواجي بأن عمار يتعاطى المسكرات وما شابهها؟ فسأجيبك بأن عمار كان خبيث إلى الدرجة التي لم يكن يسمح لي بمقابلته وهو تحت تأثير المخدرات.

عمار شخص أناني كان يفكر في ثروة أبي وكيف يستغلها ولم يجد طريقة تكسبه كل تلك الأموال المكدسة سواي.

نحن الفتيات حمقاوات في الحب. . لا نعلم شيء عن خبثه وسكراته. لا يوجد حب بلا خسائر ولا أحد يخسر سوانا نحن الفتيات.

بعد ما يقارب السنة من زواجنا تمكن عمار من أخذ ما يريد ثم رماني كما يرمي كيس النفايات. نعم طلقني. كانت لحظة ولادتي من جديد. يا لي من غريبة. ليلة زفافي هي يوم موتي. وليلة طلاقي هي يوم ولادتي.

نعم كنت في قمة السعادة. الابتسامة ترتسم على وجهي. أذناي تنصت له جيدا. وعيناي تتأمل حركة شفتاه وهو ينطق بها (أنت طالق) لا أعلم لما كل تلك الفرحة العارمة التي ملأت صدري، هل هو الجنين الذي خبأته بداخلي وجعلته سرا لا يعرفه سواي خوفا من أن يزهق روحه في لحظة من لحظات سكره ؟

أم ربما فرحي بتحرري منه لأعود ومن هذه اللحظة حمامة بيضاء تجوب بحار السماوات على غيمة تشبهني.

بعد إتمام أوراق الطلاق وإنفصالي تماما عن عمار بمدة قصيرة تقدر بالأسبوعين قررت وبعزم وقوة إخباره عن طفله الذي يتكون بداخلي. لا أبالغ إن قلت لكم أن الخوف الذي بداخلي كان أكبر من قوتي. نعم الخوف، خوفي من ردة فعل عمار عندما يعلم بأنه كان سيصبح أبا لطفل سيعيش معه كل أيامه لو لم يطلقني ،

خائفه من أن ينتظر ولادتي ليأتي ويأخذه من حاضنته قبل أن أراه، خوفي من أن ينتقم مني فيزهق روحي وروح الجنين معا.

مع كل الخوف الذي يتملكني كان يجب علي أن أؤدي واجبي وأخبره ،رفعت سماعة الهاتف بيدي التي ترجف بشدة ترددت ولكن اتصلت به. رن هاتفه كثيرًا لكنه لم يجب. عاودت الاتصال به كثيرًا بلا أية جدوى. قررت الاتصال بوالدته التي لم يتسع قلبها لحبي يوما. شتمتني كثيرًا. هددتني بالعذاب ثم الموت قهرا. قالت أشياء كثيرة أقرب بأن تكون ألغازا. لم أجادلها وإنما كان علي أن أخبرها بالجنين ومن بعدها سأغلق السماعة،

-لم أتصل محبة بك أو إشتياقا لابنك السيء.

-إذا لأجل من تتصلين اليوم؟ ألا يكفيكي ما فعلته؟

-وما الذي فعلته مسبقا لأفعل المزيد اليوم؟

-وتنكرين أيضا. لطالما أخبرت عمار بأنك خبيثة لكنه لم يسمع مني.

-حسنا لن أجيب عليك الآن ولكن،

-وتهددين أيضا،

-أتعلمين ربما كنت مخطئة عندما قررت الاتصال بك.

-اسمعيني جيدا. . إن لم يخرج عمار من السجن خلال ثلاثة أيام فقط فاعلمي بأنك جنيتي على نفسك.

لم أتمالك نفسي أسرعت بإغلاق السماعة. أسئلة كثيرة بلا أجوبة تدور برأسي. .

ما علاقة السجن بي؟ ولما طليقي اليوم ينام في زوايا السجن الباردة؟

اتصلت بياسر صديق عمار المقرب فربما فهمت منه شيئًا،

-طليقك اليوم في السجن بتهمة ترويج وتعاطي المخدرات.

-ومنذ متى وهو في السجن؟

- لقد قبضوا عليه في ذات الليلة التي طلقك بها.

-أتزوره؟

- لا البتة. فقد قطعت علاقتي به تماما.

-حسنا شكرا لك.

ليتك يا عمار مت قبل أن تسجن عندها سأخبر طفلي عندما يسألني عنك بأنك قد مت مرضا أو ربما بحادث مروري. أما الآن بماذا سأجيبه؟

أأقول له أن أباه تاجر مخدرات؟

أم أخبره بأن أباك لم يحبك يوما لذلك لم يسأل عنك؟

تبًا لك ولأمك يا عمار.

***

الرابع من شباط

إنه اليوم الذي أنجبت به جهاد الطفل الذي لازالت بشرته حمراء. ويد صغيرة لم تفلت إصبعي بعد ،أسود العينين. جميل المبسم. كان يوما أشبه بالجنة لقد ولدت من جديد معه عندما وضعته على صدري. تلك اللحظه نسيت الدنيا ومن عليها وعشت أجمل أيامي بجوار جهاد.

لم أفكر سوى به. ماذا سألبسه أولا. أين سينام؟. كيف سيعيش.

انتهى أول يوم لي في المستشفى وأنا أتأمله. لم أدع أحدا يلمسه أو يحمله فجهاد لي وحدي ولن يأخذه أحدا من حجري. فالحرب علمتني بأن البشر مثل الذئاب ولعبتهم هي النفاق.

كنت أكبر معه كل يوم. ملامحه كملامح خاله المختفي منذ بداية الحرب لكنني سأخبره عندما يكبر بأنه يشبه أجمل رجل سرقه الظلم.

(بالأمس وضعت زهرة جديدة للحرب التي ليس بها سوى الشوك. ستكبر زهرتي رغم الجفاف المحيط بها وستكون أول من يعيد لحلب جمالها)

ذلك ما قلته قبل أربعين يوم بالتحديد اليوم الثاني من ولادتي. أما اليوم فيتوجب علي تصحيح ما قلت فصغيري لن يكبر والشوك قد ملأ المكان ولا أزهار تنمو خلسة بينهم.

فاليوم الذي أصبحت قادرة على التقوي بجهاد ومقدرتي على مصارعة كل شيء لأجله تأتي الحرب مرسلة لي قذيفة مهمتها أخذ جهاد من بين يدي.

في الوهلة الأولى التي سمعت بها صوت القذيفة التي تسلك طريقها نحو منزلي لم أشعر بشيء أبدا لا مشاعر أو خوف وكأن قلبي قد توقف وانقطعت أنفاسي. . أظنها كانت الموتة الثانية (أما الأولى فهي عندما قبلت الزواج بعمار).

أما الثالثة فهي عندما خرجت من أسفل ركام المنزل وجسدي قد لطخ بالدم وعيناي تبحث عن جهاد بين كومة المنقذين.

"نحن السوريين نموت في اليوم الواحد ألف مرة. إننا نشتهي الحياة ".

تعالت أصوات التكبير وصوت بكاء جهاد شق طريقه من بينها. جهاد خرج وتسابق عليه الناس لإسعافه. ظننته لن يسكت سوى عندما أحتضنه وأقرأ عليه ولم أتخليل أنه سيلفظ آخر أنفاسه عندما يشعر أنه أصبح في حجري.

نعم جهاد مات بين يدي. مات وأخذ روحي لترافقه إلى السماء. فحنان اليوم تعيش بجسد تفتقر إلى الروح. حياتي أصبحت كومة من السواد. . لا ألوان بداخلها. جهاد هو كل ألوان الحياة الجميلة.

حاولت جاهدة وبكل قواي أن أبعد أيدي المنقذين عن جسدي وخصوصا ذلك الفتى الذي بدأ يناديني (بأمي). استعملت حنجرتي وصرخت بأعلى صوتي لعلهم يعيدوا جسد جهاد إلى حضن أمه لكن عبثا أحاول لقد ساقوا جهدا إلى التراب وساقوني إلى مستشفا يعج بمن هم أمثالي. استفقت على سرير كان يجب أن يكون لونه أبيض لكن للون الأحمر نصيب أكبر. كانت الأجهزة حولي من كل جانب تمتد منه أشرطة التصقت بجسدي. وإلى جواري يجلس ذلك الفتى الذي يدعى جهاد يمسك بيدي ولازالت شفتاه تردد (أمي).

-حمدا لله على سلامتك أمي.

أنظر إليه بعينان حمراوين من شدة البكاء وأقول في سري.

-ليتك أيها الشاب لم تسعفني. ليتك تركت جسدي يموت تحت ركام المنزل. لماذا أتيت ولماذا لازلت بجاني ماذا تريد مني. ولما لازلت تردد كلمة (أمي) منذ أن شاهدتني؟

أترى يكون الله قد أرسلك لتكون عوضا عن طفلي؟

أم إهتمامك بي ليس سوى شفقة منك؟ وإن كان كذلك فتوارى عني خجلا.

***

الأول من تشرين الثاني

.جهاد

لم يعد هنالك الكثير من المرضى داخل غرف المستشفى المتراصة. يبدو أن حلب بدأت تحيا من جديد، الياسمين بدأ يزهر. وأصوات البائعين عاد ليعلو. وشمس حلب القديمة عادت إلى سمائنا من جديد. . أصوات الأطفال يرن في أذني. وصوت الضحكات يغلب على شهقات البكاء.

خرجت أركض إلى باب المستشفى لأتأكد بعيني ما سمعته أذني. لم أرى الموت ذلك اليوم بل كانت حلب تشع نشاطا وحيوية. لا حصار ولا قنابل أو كيماوي. لا رصاص ولا شظايا. لا شيء سوى الحياة، الحياة فقط.

يمكنني الآن أن أقول لكم بأن نيران الحرب قد انطفأت وسوريا اليوم قد عادت إلى الحياة بعد الموت، لا أعلم كيف ومتى لكنها انطفأت

أسرعت إلى (حنان) والدة جهاد التي لازالت ملازمة الغرفة التي تحمل رقم أربعة. فمنذ وفاة رضيعها ونبضات قلبها غير مستقرة وجسدها أصبح لا يستجيب بسهولة للأدوية والمغذيات.

اقتربت إليها بهدوء. جلست إلى جوارها وبدأت أحادثها وكأنها تسمعني. .

-حنان، حلب اليوم ليست كالأمس. الموت غادر حلب. أصبحت أكثر جمالا. وعندما خرجت إلى شوارعها سألتني عنك. إنها تشتاق إلى دعسة قدميك، يجب عليك التحرر من كومة الأجهزة التي تحيط بجسدك. عودي قوية كتلك المرأة التي رأيتها تصلي على كومة الركام وجسدها يقطر دما.

أعلم أن ما أصابك كبير جدًا ولكن هل وجعك يقارن بوجعي؟

أنا الذي فقد عائلته وما زال يقاوم. .

أنا الذي يفصلني عن عمي حدود وأنهار وطائرات ولا يعلم عني أي شيء،

أنا اليوم مجهول لا أحد يعلم بحاله سوى الله.

جددت الأكسجين لحنان ورميت على جبينها قبلة جافة وخرجت لأمنح عيناي فرصة التأمل بحلب وشوارعها.

الجميع كان يكبر، لا أحد في منزله مختبئ، الأطفال والنساء والرجال وحتى الشيوخ كانوا متوزعين في الطرقات.

كم أنت جميلة يا حلب رغم دمارك.

نمت ذلك اليوم فوق ركام منزلنا الذي وعدت نفسي وجعلت الله شاهدا علي أن أعيد بناءه كما كان لأعيش بين الصور والذكريات.

أعلم أنني أمام مستقبل مجهول ومعركة قاسية يجب علي أن أخوضها وحدي ولكن عهدا مني يا والدي سأنجح. وإن هزمت سأتخيلك يا والدتي إلى جواري لأنهض.

أعترف أنني اليوم وحيد لكنني لن أضعف أبدا وسأكون جهاد الرجل الذي تمنت كل أم أن تنجبه.

في الصباح حيث الشمس مرسومة في منتصف السماء ونورها يضئ عتمة قلوبنا. . نهضت من فوق الركام أشارك فرحة كل حلبي. .

لعبت كرة القدم مع الأطفال، وساعدت جارنا في بيع الخضار، تسابقت مع فتاة لا أعرفها، واشتريت لأخرى بعض الحلوى. .

عزمت شيخ كبير على فنجان قهوة، ولعبت مع آخر الشطرنج.

الجميع كان سعيد من الخارج ولكن كانت هنالك دمعة حزن في كل قلب تمنيت لو أستطيع مسحها.

ذهبت إلى المستشفى حيث حنان لازلت حبيسة غرفتها. فتحت باب الغرفة بهدوء فإذا بالأطباء والممرضات حولها وجهاز الإنعاش ملتصق بجسدها، محاولات إعطائها فرصة جديدة للحياة كانت مستمرة،

لقد توقف قلب حنان ولم يتوقف قلبي. .

أتيت إلى الطبيب بسام وطلبت منه أن يدعني أنعشها وحدي. حاولت إنعاشها لأكثر من خمسة عشر دقيقة بلا جدوى. بكيت لكن لم أفقد الأمل. وضعت يدي فوق قلبها وبدأت أرتل لها ما حفظته من القرأن كنت أقرأ وأبكي وعيناي لم تفارق جهاز نبضات القلب. .

لا أريد أن أخسرها يا الله يكفي هذا القلب ما مر به من وجع .

بعد وقت قصير أيقنت أنني أمام جثة لن تستفيق وأن حنان ذهبت كما ذهب من قبلها. رفعت الغطاء حتى غطى وجهها وخرجت منكسرا ليكمل عني الطبيب بسام.

جلست في مكتبي أبكي وحدي أحاول أن أبقى قويا لكنني لم أستطع ما يحدث لي أكبر وأقسى مما كنت أظن يا الله.

القيت برأسي على مكتبي وبدأت بنوبة البكاء،

وما هي إلا لحظات حتى دخل علي الطبيب بسام وكان يصرخ فرحا. .

-ما الذي فعلته يا رجل؟

نظرت إليه بتعجب فأكمل. .

-حنان، عاد قلبها ينبض. ما الذي فعلته لها؟

نهضت من مكاني كالمجنون أركض في أروقة المستشفى باحثا عن غرفتها. وكأنني أنا من أعطي فرصة جديدة للحياة. أو ربما كأن أمي هي من عادت إلى الحياة.

اقتربت إليها وأبعدت من كان حولها من الأطبة. أمسكتها بكلتا يداي وبدأت أهزها بقوة حتى كاد رأسها ينفصل عن جسدها،

-حنان أفيقي، حنان أرجوك يجب أن تفتحي عينيك.

-ستكون بخير غدا.

تلك الليلة أوترت ثلث ليلي أدعو لها بأن تتحرر من كومة الأجهزة لترى حلب كيف أصبحت اليوم.

أظن اليوم بأن حنان هو آخر بصيص أمل لدي فإن رحلت سأنطفئ إلى الأبد.

تأملتها كثيرًا. سألت نفسي هل يعقل أنني أقوى البشر؟ أم أن الناس تمتلك قلوبا ضعيفة يهزها نسمة هواء؟

هل ستعود حنان حقا؟ أم أنها تلفظ انفاسها الاخيرة على هذا السرير؟

لماذا يرفضني الموت؟

لماذا يأخذ من أحببتهم ويدعني أصارع وحدي؟

هل مازال في قلبي متسع لحمل المزيد من الأوجاع؟

أين أنتِ يا أمي؟

طفلك ينهار ويسقط وحده. .

إنني أفقد قواي وكبريائي في لحظة صمت.

أرجوك عودي لتلملمي خيباتي وشتات وقلبي. .

أشعر باللاشعور وكأن مشاعري قد ماتت منذ عقود. وكأن الكون أطفأ نوره في وجهي، كأنني قرعت جميع الأبواب ولم يفتح لي أي باب.

كأنني جندي عاد بعد حرب مميتة ولم يجد من ينتظره وهو الذي ظن للحظة أن الجميع سيستقبله بالقبلات والأحضان الدافئة.

من أنا يا الله؟ أبشر أم ملاك؟

***

أسدلت الشمس أشعتها بهدوء لترمي دفئها في قلوبنا الباردة. .

طرقت باب الغرفة ودخلت إلى حنان أجر قدماي إلى جسدها، أضع كفي على صدري محاولا إمساك قلبي كي لا يتوقف. اقتربت منها ووضعت السماعة فوق صدرها أتصنت إلى دقات قلبها، لكن لا يوجد نبض أستمع إليه.

أعدت المحاولة ولكن هي ذاتها النتيجة، ربما لازال هنالك أمل. .
أسرعت نحو مكتبي وأحضرت سماعة أخرى وجريت نحوها ولكن لا فائدة. النتيجة ذاتها "لا يوجد نبض ينبض داخل جسدها "
بدأت حالة الاستنفار داخل غرفتها، الجميع يحاول إعطائها فرصة للحياة.
الجميع يرى أنه لا جدوى من المحاولة، وأنا أصر على أنه لا زال هنالك بصيص أمل سأحيى عليه حتى النهاية.
-حنان هيا افتحي عينيك وأثبتي للجميع أنك ستكونين إلى جانبي.
أرجوك لا تدعيني وحدي الآن، استفيقي.
هذه المرة صوتي الذي بحه الرجاءات لم يصل إلى حنان وقلبها فغادرت واقعي لتذهب إلى جوار صغيرها جهاد، وتترك على الدنيا جهادا آخر لازال يحاول أن لا ينكسر.
ودعتها بطريقتي الخاصة ألقيت جسدي بجوارها ومسحت على شعرها. غنيت لها بصوت هادئ. غسلت وجهها بدموعي المالحة حتى كاد يحترق من شدت حرارتها وملوحتها. ضممت يديها إلى صدري أودعها وكأنني أودع ألوان الحياة وكل ما هو جميل. أتأملها بعمق حتى ظننت أنني أرى دمعة هاربة من عينها اليمنى. أمعنت النظر، فركت

عيناي جيدا، لم يكن وهما فهنالك دمعة تخرج من عينها سالكة طريقها على خدها.

نظرت إلى الطبيب بسام والدهشة تأكل ملامحي،

-هل الجثث تشعر بنا؟

=نعم هي تسمعك يا جهاد

-تسمعني وتشعر بي، هنالك دمعة خرجت من عينها اليمنى

=لا بد أنها من دموعك الساقطة على وجهها

-لا لا حنان تشعر بي وتبكي، إنها تبكي يا بسام.

=عليك أن ترتاح يا جهاد يكفيك ما مررت به اليوم دعني أتكفل أنا بما تبقى.

-لا أنا من سيكمل كل شيء

خرجت من مغسلة الأموات بفستانها الأبيض الذي غطى جسدها حتى أخفاه عن أعيننا. خرجت لتزف فوق أكتافنا نسير بها نحو أميرها الصغير لتنام بهدوء إلى جواره وإلى الأبد. لترتاح من كومة الأجهزة التي كانت ملتصقة بجسدها النحيل. لتنسى دموع الحزن والوجع. أغمضت عينيها لتنعم بنعيم اللقاء وتترك خلفها من يحترق بنار الشوق والفراق.

أهذه هي الحياة التي كنت أركل بطن أمي لأجلها؟

هل سأستطيع التماسك بعد أن انطفىء آخر بصيص أمل؟

حادثتها طويلا وكأنها أمي، أخبرتها عن ألم فراقها وما الذي فعله بقلبي

-ظننتك أقوى من ذلك. قلت لي " أنا معك حتى النهاية " أهذه هي النهاية التي كنتي تقصديها؟ أترين أنك غادرتي في الوقت المناسب؟

وما الذي سأفعله غدا بأيامي حين لا أجدك؟

بت تلك الليلة فوق التراب الذي ضم جسدها فتراب قبرها كان وسادتي ودفء الشمس كان غطائي. .

في الصباح استيقظت على قطرات المطر التي نزلت لتغسل روحي من آلام الماضي والحاضر.

وقفت فوق قبرها أدعو لها. . وقبل مغادرتي وعدتها بأن أتزوج لأنجب طفلة أطلق عليها اسم " حنان " وسأجعلها تكبر بين أحضاني ودلالي. وعدتها ما وعدت به والداي بأن أستمر وأكمل ما بدأت به دون أن أنكسر. أن أجاهد لأجل المستقبل،

غادرت قبرها وأنا أجر قدماي بتثاقل من يرغب بالمكوث. خرجت وأنا أجر خيباتي والحزن يتدلى من أكتافي وأكرر على نفسي سؤال واحد. .

من الميت فينا أنا أم هي؟

كان وجهتي المستشفى وتحديدا الغرفة التي كانت تحوي جسد حنان. لازلت أشم رائحتها وأرى جسدها الممدد على السرير. أرى وبوضوح ابتسامتها ترتسم على وجهها رغم الألم. لازالت قادرا على سماع صدى أنينها.

لازال لدي أمل أن كل الذي أمر به ليس سوى كابوس مخيف وسأصحو منه ذات ليلة.

خرجت من المستشفى أبحث عن منزل صغير أكمل فيه وحدتي. .

أقف أمام الرزنامة وأنتزع الورقة التي تحمل رقم التاسع عشر من يوليو. يبدو أنني نسيت انتزاع أوراق الرزنامة منذ وقت طويل.

أحادث نفسي وأنا أحدق بي في المرآة المعلقة على الحائط،

-أين كنت خلال تلك الفترة؟ لا أكاد أتذكر شيء منها. لقد بلغت عامي الثاني والعشرون ولم أنتبه. لا أدري كم يوم مضى أو كم سنة؟ يبدو أنه مر وقت طويل لم أكتب به شيء في هذا الكتاب المهترء والملطخ ببقع دماء قديمة.

لا بأس ها أنا اليوم أقف من جديد أمام ذاتي. جهاد اليوم أكثر وسامة وذكاء. لكنه هزيل جدًا، يحمل بين يديه شهادة خبرة في الطب وشهادة

من معهد اللغة الانجليزية. وشهادة أهديتها لنفسي كتبت بها تهنئة باحترافي الطبخ.

أسكن في ملحق صغير لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص. لكن ما ينقصني الآن هو العائلة. أو ربما حضن أمي.

***

السقوط من الجنة

الخامس من ديسمبر :

وتحديدا الساعة الخامسة والنصف ليلا خرجت أتبع أقدامي حيث تسير وأقف حيث تستقر. .

رأيتها هناك. على ضفة النهر حيث تداعب الرياح خصلات شعرها بلطف والشمس تودعها بحزن، رأيتها تعزف على الجيتار فتتمايل وترقص وحدها على موسيقاها الحزينة.

أتأملها على بعد أمتار قليلة. فتارة أتمايل معها وأنساب بين أوتارها وتارة أتأملها كتأمل رسام للوحته قبل البدء بها.

شعور غريب يتسلل إلى داخلي. لا أعلم ما هو حقا ولكن كل الذي أعلمه أن تلك الفتاة هي سبب ذلك الشعور.

سألت نفسي بتعجب ما قصة تلك الفتاة؟

وهل سألقاها في الغد إن عدت؟

وهل ستعزف اللحن ذاته؟

انتظرتها حتى غادرت واتبعت أقدامها حتى دخلت من باب ضخم يتسع لدخول خمسين رجلًا دفعة واحدة. قصر طخم كتلك القصور التي نشاهدها في التلفاز وحراس كالجراد منتشرين في كل الزوايا،

أيعقل أن أخسر حتى في الحب؟

عدت إلى الخردة التي كنت أظنها منزلا أفكر وأرسم سيناريو للقاء الغد.

هل سيكون صامتا كما اليوم؟

أم سأتجرأ وأقترب لأحادثها؟

هل يعقل أنني أحبها أم مجرد شغف لمعرفتها عن كثب؟

كنت أراقبها بشكل يومي. أتي قبل موعدها وأغادر المكان فور مغادرتها،

مر أسبوع وأنا أراقصها على بعد أميال قليلة، أشعر أن أرواحنا تداعب بعضها، تتراقص، تعزف معا على وتر واحد. أشعر بخصلات شعرها الذهبية تتراقص بحنان على وجهي الشاحب.

بعد ما يقارب الأسبوعين قررت محادثتها بأسلوب مختلف. أضع لها وردة بيضاء يتيمة في اليوم الأول والحقها بوردة أخرى في اليوم التالي. وهكذا إلى أن تصبح عدد الورود تسع وثلاثون وردة وعندها سأتي إليها أمد لها التسع والثلاثون وردة وأخبرها بأنني جمعت شملها مع أشباهها الأربعون.

في ذلك اليوم سأخبرها بما فعلته بي وبقلبي الذي بدأ يتعلق بها. كيف أهرب من العالم كل ليلة لأتي وأتمايل معها وأنسى ما فعلته الدنيا بي. سأخبرها أن قلبي أحبها دون أن يعلم أي شيء عنها سوى طريقة رقصها وعزفها الحزين الذي يتكرر كل يوم أمام عيني.

فأنا العاشق في هذا الوطن اليتيم. أعلم جيدا أن جنازة الحب في بلادي قد شيعت منذ زمن ولكنها استطاعت وبشكل عجيب أن تحييه في قلبي.

***

الثاني من شهر فبراير :

كل شيء كان مختلف ذلك اليوم حتى صوت العصافير كان متخلف وكأنها تغني معا على إيقاع حفيف الأشجار.

خرجت صباحا إلى عملي بنشاط ملحوظ كنت أجهل سببه. الابتسامة قد حفرت على وجهي وقلبي يتراقص فرحا على صوت زقزقة العصافير. كل شيء كان جميلا في عيني هذا اليوم ولكن ينقصه قبلات أمي ويد أبي.

استقبلني الطبيب بسام بالحضن والقبلات وجمل التهنئة التي كانت تطرق مسامعي :

-اليوم هو يوم سعدك يا جهاد

-ماذا تقصد؟

-هنالك رسالة أتت اليوم من عمك أحمد

مد يده التي تحمل الرسالة نحوي وابتسامته تتحدث بدلا منه. أنظر إلى الورقة وقلبي يتفطر شوقا وغضبا في ذات اللحظة. ما الذي ذكره بي بعد كل تلك المدة؟

قاتلت في كل المعارك وحدي وكنت أحتفل كل مرة آخرج منها منتصرا بمفردي. فلماذا اليوم؟

كنت أسأل نفسي هل أطوي الماضي وأفتح صفحة جديدة بتلك الورقه التي بين يدي بسام؟ أم أحرقها ويبقى الماضي يجعلني أنكر أنه يوجد أقارب لي على هذا الكوكب في مكان ما .

عيون بسام كانت ترتجيني ودمعة عالقة داخل عينيه تحاول إقناعي فلعل واقعي ومصير مستقبلي في تلك الحروف المختبئة داخل ظرف أبيض.

مددت يدي نحوها أتحسسها بأطراف أصابعي. أمسكها وأعانقها، ثم أشتمها.

لم أكن أعلم أنه من الممكن أن يجتمع شعور الشوق والبغض معا داخل قلبك في ذات اللحظة ولكنه حدث اليوم داخلي.

فتحتها بحرص شديد وكأنها قنبلة أخاف انفجارها. كتب داخلها :

((سأبدأ رسالتي هذه بلا مقدمات ربما لأنني أشعر أن جهاد لا يحبها.

بداية أرجو أن تقبل مني تعزيتي لك بما فقدت. أعلم أنني تآخرت كثيرًا ولكن ما ذنبي إن كنت قد فجعت بالخبر صباح هذا اليوم الذي أخط لك فيه رسالتي الأولى؟

لا أعلم كيف هو شكلك الآن ولا كم تبلغ من العمر ولا ماهي ملامح وجهك التي رسمت على وجهك عندما وصلتك رسالتي أتراها تعابير حزن أم فرح بورقتي المهترئة؟ولكنني أعلم جيدا أنني أكتب اليوم

لشخص جبار. شخص ليس بعادي أبدا فعندما علمت بخبر فقدانك لعائلتك تسائلت كيف لجهاد أن يحتمل كل هذا بمفرده؟

أعلم جيدا أن حروفي اليوم لن تواسيك ولن تضمد جراحك وأعلم أن حزني لا يقارن بحزن ونزيف قلبك. ولكنني أتيت اليوم أخبرك أنني إلى جوارك شئت أم أبيت فتلك كانت وصية والدك لي في آخر رسالة كتبها لي والتي سبقت موته ببضعة أشهر.

وأعدك بأن سأتي قريبا جدًا إليك سأمسك بيدك ونسافر معا لتكمل حياتك هنا وأظنها ستنسيك السنين العجاف التي مررت بها.

ملاحظة : وضعت لك داخل الظرف صورة لي وبجواري زوجتي وأطفالي أتمنى أن تتأمل عيوني جيدا لأنك حتما سترا نفسك بداخلها.

عمك أحمد

هطلت على الورقة مطر سكبته عيوني. دموع شوق لشخص لا أعرفه سوى في قصص والدي التي كانت تروى لي قبل نومي. تأملت صورته جيدا وأكاد أقسم أنها صورة والدي لولا تلك الفتاة التي تقف إلى جواره فهي لا تشبه أمي. فإن كان هنالك سبب لمسامحتك يا عمي فحتما هي نسبة الشبه الكبيرة بينك وبين والدي. قبلت جبينه كثيرًا وضممتها إلى صدري وجعلت عيناي هي من تحادثه.

فكيف لشخص أن يحب ويكره في لحظة واحدة؟

لا أعلم ولكن هذا ما أشعر به نحوك. .

وضعت الصورة في جيبي خلف الصورة التي تضم والداي وخرجت أسير نحو موعدي للقاء حبيبتي فاليوم هو اليوم انتظرت قدومه. أمسك بين يدي تسع وثلاثون وردة حمراء لأجمعهم بشبيهتهم الأربعون.

أعلم أنني عاشق مشتاق في وطن متعب وهالك لكنني مازلت أؤمن أن هناك فسحة ضيقة لأغنية عشق ستخرج وتشق طريقها من وسط كل هذا التعب.

تقدمت إليها وقطعت خلوتها بطقوسها المعتادة. لم أستطع التلفظ بحرف عندما وقعت عيني عليها،

عينها كجمال السماء، كزرقة البحر وإن أبحرت بها فستغرق

شعرها أسود كسواد وظلمة الليل في غياب نور القمر.

رقيقة كرقة الندى على أوراق الزهور صباحا، لا وصف يصفها كحورية قد هربت من الجنة. كان لقائنا صامت كلانا قد اكتفى بتأمل الآخر فكل شيء فيني كان يتحدث. . عيناي، قلبي، جوارحي. عدا لساني فكل الحروف كانت ثقيلة.

عزفت لي لحنا مختلفا أكثر وجعا وأكثر دفئا وكان من الحضور النجوم والقمر. جميع الأشياء كانت تنصت لعزف الناي وتتأمل عيناها بدهشة وصمت.

هي بحر كلما حاولت الإبحار به غرقت

سرعان ما انتهت تلك الليلة وحان موعد الفراق. فالزمن سريع لمن يحب. .

بطيء لمن ينتظر، وطويل لمن يتألم، وقصير جدًا لمن يحتفل.

-ادعى مي، ولكن الجميع هنا يطلقون علي اسم "ملاك"،

أعيش في قصر ضخم أسواره تناطح السحاب. أخت لبنتان يكبراني وقد تزوجتا منذ زمن. أبي رجل كبير السن قد انحنى ظهره وغزا الشيب رأسه ولم يعد له رغبة بالعيش.

مددت لها يدي بهدوء وإبتسامتي قد نحتت على وجهي. .

-أنا جها،

قاطعتني بصوتها الحزين :

-أعرفك جيدا، ومن الذي يجهلك؟

أدارت ظهرها لي وغادرت دون أن تسمح لي بالحديث. رحلت وتركت بداخلي أسئلة لم أجد لدي جواب لها. أشعر وكأنني أدور في دائرة مغلقة لا نهاية لها أو بداية وعلي أنا خلق النهاية لها وستكون نهاية قصتي هي زواجي منك يا مي. سأنهي روايتي بفرح يشق سطور الحزن المتزاحمة على أوراقي.

صباح اليوم التالي وتحديدا العاشرة صباحا :

اليوم هو الجمعة. . عطلة نهاية الأسبوع لدى الجميع. وفرحة طلاب المدارس.

أقف أمام مرآة الحائط. أرتدي ثيابي الرسمية وأسرح شعري ليأخذ شكل أمواج البحر. أضع في جيب السترة الخارجي وردة بيضاء وأكرر بكل سرور

" أنا لك وأنت لي "

خرجت برفقة الطبيب بسام وسرنا إلى وجهتي حيث ستبدأ قصة فرحي وسأمحو كل مآسي الماضي. أسير إليها بقلب لا أحمله في صدري وشفتان لا تردد سوى

" أنا لك وأنت لي "

لم أصلي في أمرها صلاة الاستخارة خشية أن تكون شرا لي فيصرفها الله عني. فلقد رضيت بجحيمك قبل جنتك.

أقف أمام باب أسود طخم أطرق جرس الباب باصبع يدي اليسرى بينما الأخرى تتراقص مع كومة الورد التي أحملها بقبضة يدي.

رجلًان يغطي جسدهم السواد يفتحون باب القصر بقوة ويسمحون لنا بالدخول وكأنهم يعلمان عن خبر مجيئنا. وآخر مقعد كبير السن يستقبلنا عند بداية القصر وعلى يمينه مي ترتدي فستان حريري وردي اللون وشعرها ييتمايل على أكتافها.

تقدمنا بهدوء أسير وكأنني أسير إلى الجنة. أتقرب إليها أردد في داخلي.

" أنا لك وأنت لي "

رحب بنا والدها وأمر حشود الحرس أن تعمل على راحتنا وتحضير وليمة العشاء لنا.

-اسمك جهاد أليس كذلك؟

-نعم، وهذا الطبيب بسام وبمثابة والد وأخ وصديق لي.

أحادث والدها وجفن عيني لم يرمش عن حبيبتي التي تقف كتمثال صامت،

-في الحقيقة أتيت أطلب يد ابنتك لتكون زوجة وحبيبة ووطنا لي.

- أخبرتني كثيرًا عنك وعن رغبتها بك. وهي لك إن قبلت العيش معنا هنا في هذا القصر.

أقلب نظري على وجهيهما. كلاهما يشع من وجههم نور ساطع وابتسامة وردية تزينهم،

خرجت بفرحة لا يسعها الكون. أشعر ولأول مرة أنني أحلق بحرية وسعادة. أشارك الطيور رقصتهم في سماء زرقاء وأردد خلف الأطفال الأغاني حتى أوراق الشجر تتراقص فرحا لأجلي.

أشعر وكأنني ريشة بيضاء تراقصها الرياح من خف وزنها فتتمايل يمنة ويسرة وتسير بسعادة حيث تأخذها الريح العتيه.

هل يعقل أن ينتصر الحب بكل هذه البساطة؟

أم أن فوزي بمي هدية وجزاء لصبري على سنين قاحلة مررت بها؟

شكرا لك يا الله على الحورية التي أسقطتها لي من جنتك

***

العاشر من فبراير :

ساعة الحائط تشير إلى السادسة بعد الفجر وهاتفي لازال يرن. أظنه الاتصال الثالث عشر على التوالي. أفتح عيناي بتثاقل. أمد يدي اليسرى نحو الهاتف أتحسسه قبل أن أمسكه.

-قم يا رجل الساعة السادسة ولا تزال في منزلك.

- كم أنت مزعج، سآتي.

- لا تتآخر هنالك من ينتظرك بشوق في مكتبك.

- من؟

- ستعرف حال وصولك لا تتآخر، وداعا.

أغلقت هاتفي وانا أتأمل ساعة الحائط التي أمامي بضجر وغضب. كان يتوجب علي الاسراع شغفا في معرفة من ذلك الشخص الذي ينتظرني في موقع عملي وقبل بدأ دوامي وفي ذات اللحظة أشتمه في داخلي لأنه قطع لي حلما جميلا كنت فيه مع حبيبتي.

انطلقت مسرعا إلى موقع عملي كالمجنون أقتحم مكتبي لأرى أبي ينتظرني " أقصد عمي أحمد " يقف إلى جواره الطبيب بسام. عيناي تتأملانه بدهشة فالشبه كبير والجلسة هي ذاتها. لا اختلاف بينهما. . وكأن أبي خرج من قبره ليعود إلى جانبي.

تقدمت إليه بهدوء، ضممته بقوة ودموعي تنهمر على ثيابه. الحروف ثقيلة والوقت قصير

-لم أكن أتخيل أنني سآتي لأقابل رجلًا فلقد رسمتك في مخيلتي طفلًا أو ربما مراهق. لم أتخيلك رجلًا سيزف عريسا في القريب العاجل.

ابتعدت عن حضنه ورمقت بسام بغضب وكأنني أعاتبه. سرعان ما عاد نظري إلى عمي لأكمل حديثه،

-أأخبرك؟

- أخبرني بكل شيء وأنا هنا إلى جوارك اليوم، أخبرني أيها العريس متى هو يوم سعدك مع حبيبتك؟

- غدا.

ففي الغد ينتظرني حلم جميل ليتحقق ، فغدا هو طقوس أيامي من زفافي. ولن يكون كأي زفاف سأراقصها على ضوء القمر أدع يومي يراقص نجوم الليل ويعزف لهمس الليالي سيمفونية الحب.

سيتمايل جسدها فوق جسدي وسأهمس في أذنها " يليق بك أن أستثنيكي عن جميع العالمين، أحبك "

وفور انتهاء تلك الليلة سأمسك بيدها لنحلق بسعادتنا فوق ركام الحزن.

نبحر بسفينتنا فوق بحار الألم. يميل رأسها فوق كتفي ويستقيم العالم. سأعدها أن أصونها وأكون لها وطنها الذي لا يوجد بعده وطن آخر.

- كفاك وهم يا جهاد، استفق لواقعك.
- وهم؟
- نعم وهم، وأخبرت عمك بكل شيء

نظرت إلى عمي بعيون تملؤها الحيرة والأسئلة،

- سأزوجك عندما نسافر أجمل منها وهذا وعد.
- لكنني أحبها يا عمي
- لكنها غير موجودة يا جهاد، حبيبتك مجرد طيف، وهم وخيال لا وجود لها.
- كيف ولقد رأيتها. اسأل بسام هو من رافقني
- نعم ولكنك اصطحبته إلى منزلهم المهجور ولم يستقبلكم أي أحد. . فسكانه قد وافتهم المنية منذ عامين إثر حريق اندلع في منزل أحد أقاربهم،

" أعلم أنني عاشق في زمن متعب يملأه الجثث. ويبدو أنني العاشق الوحيد في هذا الزمن الأسود لكنني مؤمن أن حبي لذلك الملاك هو الفصل الجميل في كتب العشق الممزقة التي تراكم عليها غبار الهجر"

النهاية.

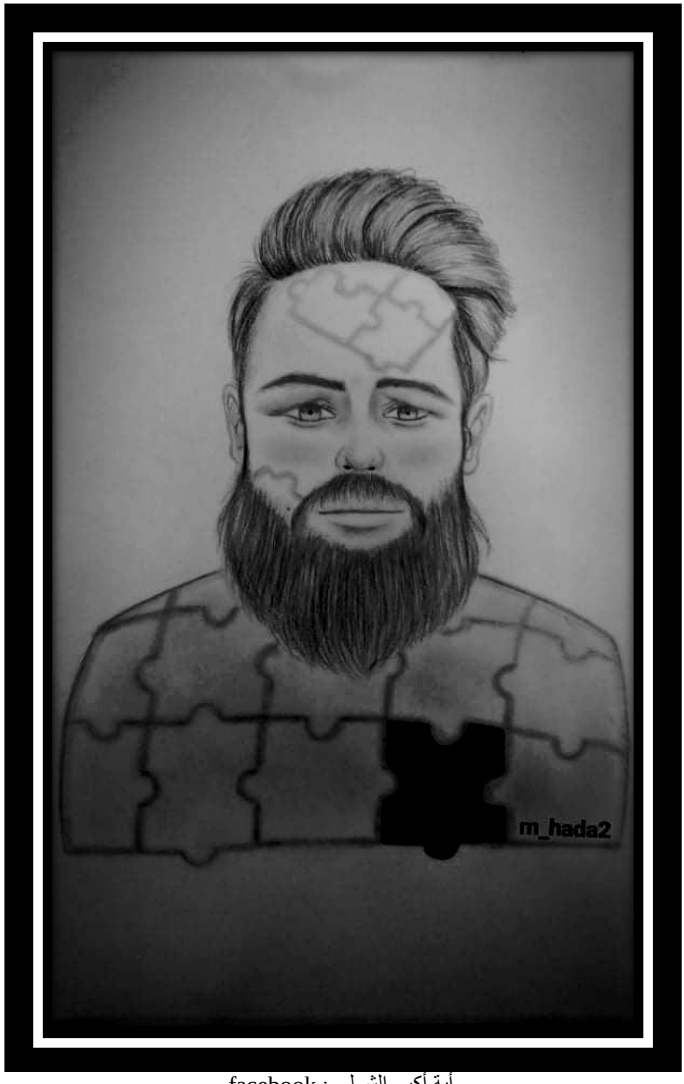

أية أكرم الشولي : facebook
Snap : Syria-aya

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع